الباب السادس

منخفضات تهامة

الأول من يناير إلى الثامن عشر من فبراير ١٩٣٧م

الفصل التاسع والعشرون

حدود السفوح الجبلية[١]

اتجهت الحدود السعودية - اليمنية، على العموم، ناحية الشمال الغربي حتى ممر علب، وقد بدأت عند حافة الصحراء بالقرب من نجران. تمتد الحدود من هناك وحتى المنحنى العظيم لوادي دفا ناحية الجنوب الغربي، بينما يكون اتجاهها العام على امتداد ضلع جبلي العريف[٢] وكتفة ناحية الجنوب الشرقي، ثم استأنفت اتجاهاً نحو الغرب من عمود كتفة، ويقع ممر نيد خرمة قليلاً ناحية الجنوب الغربي من هذا الموقع وشيئاً ما ناحية الجنوب الشرقي من أعمدة منحنى دفا، وكان عمود المعقر ناحية الشمال من خرمة. يتجه الخط منا المعقر إلى البحر ناحية الجنوب الغربي.

يقف العمود الحدودي لنيد خرمة (رقم ٧٧) على طريق خولي - شهدان على قمة جبل جلحة، مشكلاً مجمعاً للمياه بين وادي خرمة من ورائنا ووادي الخلص أمامنا، وكلاهما رافد لوادي ضمد. كانت منطقة خولي هي أعلى جزء في هذه الكتلة الصخرية وتقع غرب الممر، والذي تحيط به النتوآت العالية لجرف خرمة. يوجد على الجانب الآخر، مرتفع خفيف كثيف الأشجار لأرض شهدان المرتفعة، والذي توجد فيه قرى زيدان. تكون كتلة الجلحاء بروزاً عظيماً ناحية الغرب من

(١) لمزيد من الإيضاح عن حدود السفوح الجبلية في منطقة جازان، انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) العريف: يطلق عليها أيضاً اسم (أمعريف) (ابن جريس).

الضلع العالي لكل من العريف وكتفة، والتي تستمر عبر أرض الصفراء المرتفعة لتتصل مع سلسلة بطين السفلى والتي تكون أكتافها الرئيسة الغربية جبال عياش والعر المرتفعة البارزة، والهرمية الشكل، ويبلغ ارتفاع كل منهما (٥٠٠٠) قدم. تطل حافة الممر، إلى أمامنا أو قل ناحية الغرب، على أخدود واسع وعميق وكثيف الأشجار تكون على جانبيه أقسام كل من خولي وزيداني التابعة لجلحاء، وتنحدر في هذا الوادي مصارف الدائرة في مسيلين رئيسين، هما أمشرح ورضا، ويتحدان تحت اسم أمشرح (الشرح) قليلاً فوق آبار بئر أمشرح التي سوف نعسكر بالقرب منها لقضاء الليلة على ارتفاع (٣٠٠٠) قدم أسفل الممر، ويدخل المجرى -مع إضافات تدخله أثناء سيره- إلى وادي جلحاء جحام الذي ينشأ في الزاوية بين كتلتي الجلحاء والصفراء، وبدوره يتصل مع وادي الخلص الذي يمكننا رؤية اتصاله مع ضمد إلى البعيد عند مركز السوق مضنب باحة (سوق الأحد)، شيئاً ما ناحية الجنوب الغربي من الممر. وينبع مجرى الخلص من سلسلة بطين داخل الممر، والذي يمتد مصرفه من الجانب البعيد عبر سهل مدينة جاوى، وهي مركز إداري مهم على الجانب اليمني.

كانت قرية سورم الكبيرة هي المركز الرئيس لمحافظة منبه التي تتألف من قرى بطين وعياش والعر، وكانت سورم هي مقر الرئاسة لأمير المنطقة. كانت سورم واضحة لنا، على الرغم من أنها تبعد عنا بعض الشيء، ناحية الجنوب. كان أبرز القرى التي نراها قرى الطوال على خط الأفق لسلسلة البطين، والدوشة وتقف على نتوء حاد بالقرب من قمة العُر. كانت القرى عديدة وقررت أن أترك أسماءها

للمحلق[١]. وقف جبل فيفاء بارزاً بكل عظمته قليلاً ناحية الشمال الغربي، فيما يلي وادي ضمد، الذي إليه انحدر الجانب المنحدر والواسع لصفحته الضخمة، بينما قليلاً اتجاه أعلى الوادي كان الوادي محاطاً بمنحدر بني مالك والقرى التي تقع على قمته والتي كنا قد عبرناها قبل أيام. يقع موضع لقاء وادي خرمة مع وادي ضمد – عن طريق مجرى المديرة – قليلاً ناحية الشمال الغربي من نيد الخرمة[٢].

لاحظ حردان، دليلنا الزيداني، حينما وصلنا إلى الممر، بعض رعاة بني خولي وهم ينتهكون حرمة الحدود السعودية مع قطعانهم وهي حالة لو لوحظت رسمياً ستجعلهم مكلفين بدفع ضريبة الضأن أو تصادر حيواناتهم. ولربما أشعلت حرباً قبلية في الأيام الخوالي الجميلة. تركناهم وحالهم! ومررنا عبر طريق يشق الغابات على حافة نتوء يقود إلى قرى زيدانية منها: العرقوب والفدنه والشباب وحضن وغيرها مقامة في المرتفعات وتقع أمامنا على قمة شهدان. لقد نسيت بإهمالي أن أعبئ لفافة التبغ لهذه المسيرة ولما أخبرت حردان بذلك طمأنني بألاَّ أنزعج. ثم رفع عقيرته ينادي القرى في الأعالي التي من أسقف منازل بعضها، ظهر بعض الأشخاص يستجيبون لندائه، وطالت بعد ذلك المحادثة بين الجانبين، وتفصل بينهما مسافة الميل الواحد على الأقل، والتي لم أفهم منها إلا ما يصدر من طرفنا، وتشتمل على توجيهات لتسليم التبغ الذي نحتاج إليه في بقعة في

(١) انظر: ملحق (جـ). (المؤلف). لقد أورد فيلبي أربعة ملاحق في نهاية الكتاب، ولكنها لم تترجم وتلحق بالنسخة العربية؛ فالملحق رقم (١) يذكر قائمة بأسماء الأعمدة الحدودية بين السعودية واليمن. والملحق رقم (٢) يذكر المسافات التي قطعها فيلبي باستخدام السيارات. والملحق رقم (٣) التسلسل النسبي للداعي المكرمي في نجران. والملحق رقم (٤) والأخير، يذكر قائمة بأسماء القرى في عسير والمناطق الحدودية. (ابن جريس).

(٢) نيد الخرمة: ــ يطلق عليه أيضاً اسم (نيد أمخرمة). (ابن جريس).

مكان ما إلى الأمـام. واصلنا سيرنا بـعد ذلك نبتـعد تدريجيـاً عن الطريق أسفل السفح المكون من صـخور جرانيـتية مـتناثرة وشجـيرات متـشابكة منحدرة ناحـية الأخدود. هبطـنا بهذه الطريقة إلـى (١٠٠٠) قدم أسفل الممـر خلال سـاعة من زحف خطر جداً، حينما وصلنا إلى الرأس الحقيقي لمسيل رضا الذي يعلمه العمود الحدودي (رقم ٧٨) والـذي يعرف باسم رزمـة أم دوشة[١] لسبب بـسيط، هو أن قرية قمه العر التي تحمل ذلك الاسم كانت مرئية لنا.

هبطنا أكثر في مـسار حاد على امتـداد الجانب الأيمن الصخري لمسيل مـسافة (٨٠٠) قدم إلى حيث الرأس العظيم للجدار الجرانيتي الأحمر، وهو قطعة ضخمة منطبقـة من الصخر ممتدة عبـر المجرى من الجانب إلى الآخر في دفـعتين أو ثلاث دفعات، إلى مجموعة من البرك الصخرية عند سفحه على مسافة (٣٥٠) قدماً إلى أسـفل. لم يكن هنالك مـاء مندلق فوق الجـدار هذا الوقت، وبلا شك سـتكون الصورة جميلة جـداً أثناء السيول. كان يعلوه جلمود ضخم مـستقل من الجرانيت يسمى حـياض أم رضا[٢]، وعلى الرغم من أنه غير مـعلَّم، إلاَّ أنه يكون العلامة الحدودية بحكم حـقه في ذلك (رقم ٧٩). تعلم البرك الصخـرية التي توجد عند ارتفاع (٤١٠٠) قـدم فوق سطح البحر و(٢٢٠٠) قـدم أسفل ممر خرمة، قـياس التفاوت في الارتفاع للوادي عند التقائه مع شعيب شرح.

كانت مـوقعاً محـبوباً للذين يهـوون المعسكرات الليلية من رعـاة بني خولي وقطعانهم بسبب وفرة المياه فيهـا، غير أن حردان علَّق قائلاً: إنَّ مثل هذا الأمر لا

(١) رزمة أم دوشة، يطلق عليها أيضاً اسم (رزمة الدوشة). (ابن جريس).

(٢) حيد أم رضا، يطلق عليها أيضاً اسم (حيد الرضا). (ابن جريس).

يمكن مجرد التفكير فيه في الأزمان السابقة، وذلك بسبب الخصام المستديم الذي يميز العلاقات بين خولي وزيداني ويحياوي. كان الأخيران حليفين في مثل هذه المشاجرات، لأنهما في عرف القبيلة أخوال. التحق بنا الآن علي سلمان، رئيس الزيدانيين -إلى جانب دليلنا حردان- غير أنه يميل إلى الإذعان لحتروش، الذي كان بلا شك من أهم شخصيات المنطقة. إشارة إلى هذا الموقع الحدودي ليحياوي، فيبدو لنا أن هذا القسم يؤدي دوراً سائداً في سياسات بني مالك. برز يحيى أم شريف من الخالدين في المقام الثاني من حيث الأهمية، إلاَّ أنه كان كائناً ضعيفاً ولا يزال حتى الآن يعاني من انهيار صحته -أشك في أنه يتمارض- ليجد العذر في عدم مرافقتي في أعمالي اليومية الشاقة- كان يفضل الالتصاق مع قافلة الأمتعة التي يرافقها أيضاً عبدالله بن شرقة، الذي بحق قد تملكته الحمى للدرجة التي لم يستطع الخلاص منها.

قد يكون من المناسب استرجاع التركيب العرقي لليحياويين مرة أخرى طالما سنودعهم عما قريب ونغادر بلادهم، وخاصة مآثرهم الحربية. كان من المؤكد أن مالكاً هو السلف المؤسس لبني مالك، كان مثل جماعة فيفاء وبني حريص الشماليين من الأصل اليهناني (أو اليهاني). كان له ولدان: كثير ومغامر، وولد مغامر خالد وسعيد؛ السلف الأول لقسمي بني مالك الحاليين: خالدي وسعيدي. كانت شجرة نسب آل كثير أكثر تعقيداً وذلك لأنه كان لكثير أربعة أولاد، علي[1] ويعلي، ورايم، وحريص. كان عليل هو سلف آل علي، وهو قسم ثالث على قيد الحياة، بينما كان يعلي هو الجد الأعلى لقسمين كنا قد قابلناهما من قبل، وهما آل سلمى وآل حبس. أعطى حريص بدوره اسمه إلى بني حريص (شمال).

(١) علي أو آل علي يطلق عليهم أيضاً (العليلي). (ابن جريس).

وكان لرايم ثلاثة أولاد: يحيى وهو الجد الأعلى لليحياويين، وزيدان، الجد الأعلى للزيدانيين ونخيف الذي لم نقابل أياً من نسله، ولربما توفى ولم يكن له أبناء[١]. يتضح من هذا أن كل عناصر بني مالك، ما عدا الخالديين والسعيديين ينتمون إلى فرع آل كثير. يعتبر تل غويفر على ضمد جنوب منصية هو الحدود بين الخالديين والسعيديين، برغم أن تحت قسم العزة -الذي يقع في العرن جنوب أرض الخالديين- هو أيضاً من أصل سعيدي.

وصل إلى مكان جلوسنا بجوار البرك الصخرية -ونحن نستجم بعد هبوط مرهق- شخص من قرية الشباب ومعه نصف جوال من التبغ المحلي وسبيطة من موزهم المنتج محلياً. لم يكن هنالك مجال لدفع الثمن، إلاَّ أن الرجل كان قد سرَّ جداً بالريال الذي أعطيته له لكرمه ومشقته وقضائه الليلة معنا. كان التبغ قد تم تجفيفه في بدائية تحت حرارة الشمس وكان أخضر، غير أنه أدى الغرض منه في غليوني الوحيد المتبقي، وحتى هذا القصور قابله علي بن سلمان بإعطائي بري مستعمل وهو غليون من النوع الذي يصنع في صعدة، وبه تجويف كبير من الطين متصل بسلسلة صغيرة إلى أنبوب خشبي طوله ست بوصات. أدى التبغ المحلي وظيفته بصورة أفضل في الغليون المحلي.

تقع بركة الرضا على أرض يمنية (بني خولي)، ويمتد الخط الحدودي على الجانب الأيمن لمسيل الرضا والشرح[٢] المشترك إلى حيث العمود الحدودي التالي

(١) نخيف بن الرايم خلف أولاد من عقبة ويعرفون اليوم باسم آل نخيف القاطنين في بلاد شريج والعين. (ابن جريس).

(٢) الشرح، هو عمود حدودي بين السعودية واليمن ويطلق عليه اسم (بئر الشرح) وأحياناً يلفظ (بئر أم شرح) أو (بئر أمشرح). (ابن جريس).

(رقم ٨٠) واسمه رزمة أم شقرة[١]، الذي صعدنا إليه عبر حقول دخن - محصود الآن - ذات مساطب تتبع لقرية محشف التابعة لقبيلة بني خولي، الذين يقومون أيضاً بزراعة الجانب الأيسر للمسيل، يقف العمود الحدودي على ارتفاع (١٠٠) قدم فوق مستوى الوادي، و(٤٠٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، ويتحرك الشريط من هذا المستوى نفسه إلى صخرة شديدة الانحدار، تنهض من بين الحقول المسطبية المزروعة على جانب المجرى. كانت توجد فوقها كومة من الحجارة، تعرف أدبا بأنها عمود حدودي (رقم ٨١) وتسمى رزمة الخزانات الجميلة، وتعني صخرة «الخزان الجميل». وصلنا خلال خمس دقائق، ونحن لا نزال عند المستوى نفسه، وفوق حقول المحشف المسطبية التي تقع أسفلنا إلى اليسار حتى العمود الحدودي رقم (٨٢)، واسمه رزمة طور آل مرة، الذي انتهت فيما يليه الحقول المسطبية، التي تنتمي إلى قرية الشرح أسفل كتلة الجلحاء، في مواجهة حاجز صخري يمتد من جانب إلى آخر في المسيل الضيق.

تعثرنا في سيرنا فيما يلي هذا عند وقت الغسق، فوق بطن سيل وادي الشرح المغطاة بقطع من الصخور، إلى أن وصلنا إلى آبار بئر أم شرح داخل غابة لطيفة واستقرَّ معسكرنا بها وكنا مرتاحين لما بذلنا من جهد في هذا اليوم. كنت أعتقد أننا قد أنهينا أعمالنا في الجبال عندما كنا في نيد أم خرمة. غير أن تسلقنا على صخور هذه المنطقة الكثيفة الأشجار والصخور الصارفة للمسيل مهّدا لعمل صعب ما كنا نقوم به في أماكن أخرى، وكان هذا بداية طيبة للعام الجديد الذي احتفلت به بتناول وجبة عشاء ممتازة من لحم الضأن والأرز والموز المحلي ومحتويات علبة من

(١) رزمة أم شقره تنطق أحياناً (رزمة أمشقرة) أو (رزمة الشقرة). (ابن جريس).

الكمثرى اليابانيـة. لقد أتلف العمل الصعب خلال الأسبـوع الماضي طبقة المشمع العليا لحذائي المطاطي، وتحـوَّلت إلى شرائح، وقررت أن أستخـدم نعلاً جديداً - هو الأخير لديّ - خاصة ونتوقع مسيـرة سهلة. لن أنسى بسهولة أشواك وصخور وادي الشرح. قد بدأ الطقس يتحسن بصفة عامة وكانت بدايات الأيام في الصباح لطيـفة، غيـر أن السحب تـتكاثر عند أوقات الظهـر وتسقط زخـات من المطر في أوقات المساء، التي تـطورت عند الساعة الخامسـة صباحاً إلى رذاذ مـتواصل حتى شروق الشمس، وحـينها كل شيء لدينا قد تبلل بدرجة أخرت بداية مـسيرنا إلى الساعة العاشرة والنصف صباحاً. كـان صباحاً، بائساً وكل ما كنا نفعله أو نحاوله أن نظل بعـيداً عن البلـل باللجوء إلى الأشـجار ومن فـوقنا البطاطين وقـد بدأت وكأنها الخيام لنبعد عنا قطر المياه.

تمثل بئـر أم الشرح علامـة حدودية قـبلية قديمـة بين قبيلتي خـولي وزيداني ومعلمة من كـتلة كوارتزية مغروسة في ثبـات في شق شجرة أثاب (تين بري) في وسط مجرى السيل، نامـية من بين مجموعة من الصخـور على بعد نصف المسافة بين الثقـبين المائيين أسفل كل من جـانبي المجرى. كـان العمـود الحدودي الدولي عبارة عن كومة من حجارة ملقاة مع بعضـها فوق الصخور نفسها تحمل رقم (٨٣) وعلى ارتفاع (٣٣٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، ظل الثقب المائي الذي يقع أسفل الجانب الأيسر معطلاً لبعض الوقت، إلاَّ أن انسياباً للماء من نبع أسفل كتلة الألواح الشستية على الجانب الآخر، جعلت (بركة) الزيداني ممتلئة بالماء للقطعان، كانت المسـافة بين ثقـبي الماء (٤٠) ياردة فقط، ويكوّن وسط المجـرى الحدود إلى مسافة حـتى العمود الحدودي رقم (٨٤)، الذي يسمى مسنة، مـعلماً موقع دخول حوض ضـحل بالاسم نفسـه، من جانب التلال المتـموجة التي تـقع على الجانب

الأيمن، ويتجه من هذا الموقع وادي الشرح ناحية اليسار، ويدخل أرضاً يمنية ليدخل مجرى أكبر يسمى جلحاء حجام. كان معسكرنا على الجانب الأيسر، وعليه فهو فوق أرض يمنية، ووجدنا بين أشجاره عش حمامة، وكانت به بيضة واحدة عرَّفها حتروش بأنها بيضة حجل.

وصلنا إلى العمود الحدودي بعد (١٥) دقيقة من بداية مسيرتنا التي تأخرت هذه المرة على المجرى، ويسمى مسنة (رقم ٨٤) على ارتفاع (٣١٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، وتقع فوق ممشى حمير واضح على ارتفاع عشرين قدماً فوق مستوى الوادي عند منحناه الأيسر.

هبطنا من جانبه البعيد إلى حوض هرمة الضحل وهو يمثل الحدود الآن، فوق أرض سفوح جبلية متموجة كئيبة مع بعض الأشجار القليلة الجافة وبعض الأشجار الخفيضة، وتقود إلى العمود الحدودي التالي عند منحناه الأيسر ناحية مجرى حجام يقع عمود نيد أم سرمة[1] – رقم (٨٥)، وعلى ارتفاع (٣١٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، وهو موقع لقاء ثلاثي بين كل من خولي على الجانب اليمني، وزيداني وسعيدي على الجانب الآخر، وتمتد الحدود الداخلية بين زيداني وسعيدي إلى مسافة نصف الميل على امتداد جدول رافد إلى مضيق ينحدر من سرمة ليتصل بضمد.

خرجنا بذلك تماماً من منطقة قبيلة يحياوي (زيداني) إلى داخل تلك التابعة إلى سعيدي التي دخلناها أول الأمر من عثوان، يمتد الشريط الحدودي الدولي الآن

(١) نيد سرمة، ربما يطلق عليه نيد (أم سرمة) أو (نيد أمسرمة)، وهو عمود حدي بين بني خولي من اليمن وآل زيدان المالكيين من السعودية. للمزيد انظر: عبدالله القباع. المرجع السابق، ص ٤١١ . (ابن جريس).

ناحية الغرب فوق سلسلة عرق الضعاف الحجرية الجافة غير المشققة والمتموجة، والتي فوق قمتها وقف العمود الحدودي رقم (٨٦) - على ارتفاع (٣٦٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر -، أو كان المفروض أن يقف فوقها، وذلك لأنه يوجد في موقعه حجر واحد فوق كومة مبنية فوق صخرة ارتفاعها عشرة أقدام. ربما نقلت السيول بقية الحجارة أو نزعها لأجل التسلية أحد الصبية الرعاة العاطلين؛ الذي لم يجد ما يمكنه فعله أفضل من ذلك.

كان هنالك تصعيد تدريجي في الارتفاع لهذه السلاسل المتتابعة المعترضة التي واجهتنا بعدها، بعد هبوطنا إلى الحوض فيما يلي ضعف بتسلق رئيس للسفح الجبلي المكسو بالأشجار بصورة جيدة للسلسلة التي لا تزال تمثل قمة السفوح الجبلية لهذه البلاد، يسمى هذا الموقع بدوة -أحياناً تسمى القرعة- وهو بروز شستي للسلسلة يحمل العمود الحدودي (رقم ٨٧) عند أعلى موقع به، ويرتفع إلى (٤١٥٠) قدماً فوق مستوى البحر، ويسيطر على منظر ممتاز بمعنى الكلمة للمحيط المجاور. يمكننا أن نرى إلى البعيد سهل تهامة عبر فجوة واسعة تركتها الصفحات الهابطة لكل من العر وفيفاء لأجل أن يمر عن طريقها ضمد. لم يكن السهل -للأسف- واضحاً وهو بلا سمات بارزة، وكان ضبابياً مما لم يسمح برؤية البحر فيما يليه وليست به خصائص لافتة للنظر.

كان هنالك ما يمكن رؤيته في أي اتجاه آخر، غير أننا توقفنا طويلاً هنا لتناول وجبة الغداء ولمناشط أخرى، كنا نستطيع رؤية بئر الشرح ناحية الشرق، وكان جبل فيفاء نفسه ناحية الجنوب الغربي على الشريط العام نفسه الذي سنسلكه من هذا الموقع على الحدود. حجبت كتلة العُر العظيمة مجال الرؤيا ناحية الجنوب وكانت قمتها تقريباً ناحية الجنوب، بينما نستطيع رؤية ممر نيد جلال -قليلاً ناحية الغرب

من العُر-. وأستطيع تسجيل الاتجاهات لبقية المعالم التي كنت قد ذكرتها خلال الأيام القليلة الماضية -قبل أكثر من أسبوع- عبر القطع الناقص لمسيرتنا من عند فيفاء إلى منحنى دفا والعودة الآن إلى مستوى فيفاء. لقد كان من أكثر المناظر شمولية التي تمكنت من رؤيته منذ زمن، وأمكنني ذلك من تكوين فكرة عن الكثافة المدهشة للسكان فيما يمكن وصفه بأنه حوض ضمد. تقع مدينة جاوى ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا ويمتد واديها إلى أسفل، ليتصل فيما بعد بمجرى وادي جازان الذي يقع داخل الجبال.

واصلنا مسيرتنا بعد الساعة الثانية ظهراً على قمة العرن لسلسلة القرعة لنصل طرفه النهائي إلى العمود الحدودي رقم (٨٨) والمسمى طور أم لبيدة عند ارتفاع (٣٧٥٠) قدماً فوق سطح البحر. لم يكن العمود موجوداً حقيقة غير أنه قيل لي وبكل تأكيد إنه كان واقفاً ذات يوم على صخرة كبيرة عند نهاية العرن، تقع ناحية الغرب من موقعنا وعلى ارتفاع (٣٠٠) قدم أسفل من موقعنا هذا، عند أسفل الهبوط الشديد الانحدار مجموعة كبيرة غير منتظمة من الحجارة تؤدي وظيفة العمود الحدودي (رقم ٨٩) نيد الوقر[1] في حوض يفصل هذه السلسلة المرتفعة من التي تليها.

تم تكريم صخرة تقع فوق هذا العمود لكونها موقع لمعركة قديمة بين رجال قبيلتي بني خولي وسعيدي، والتي كانت من نتائجها مقتل شخص واحد فقط، يعد هذا الحوض الضحل ممراً مطروقاً لأراضي قبيلتي سعيدي وخولي أوعياش،

(١) نيد الوقر، عمود حدي بين آل سعيدي (بني مالك) (السعودية)، وبين آل عياش من اليمن. انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١١، آل زلفه. **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٧٣ . (ابن جريس).

ويكون العمود الحدودي موقع لقاء ثلاثي لهذه العناصر الثلاثة، يقع العمود الحدودي التالي على المستوى نفسه بعد ارتفاع قصير من الحوض على سلسلة طور موباد، وهو عبارة عن كومة من الحجارة تم الاعتراف بها رسمياً كعلامة حدودية قبلية جيدة تفصل بين سعيدي وعياش، تحمل الرقم تسعين في السلسلة. كانت هنالك -بين هذين الموقعين الآخرين، وإلى ناحية الغرب- علامات واضحة لطريق واسع والغرض منها يصعب تعليله، ولا يوجد أثر أو تقليد محلي لحركة سيارات في هذه المناطق النائية. ويبدو أنها تكوِّن خط ربط من هذه السلاسل -على زوايا قائمة- للمواصلات العادية بين المحافظات على امتداد الأحواض التي تفصل بينها.

يوجد عمود حدودي على قمة سلسلة حظوة القرية، على مستوى الارتفاع نفسه (٣٤٠٠ قدم) (ويحمل الرقم ٩١)، بالرغم من أنه ولسبب مجهول، كما يقول الشيوخ الذين يرافقوني، ولربما عن طريق الخطأ، فإن هذا العمود لم يسجل رسمياً بواسطة المؤتمر التأكيدي الذي عقد في ظهران بعد الفراغ من تعليم الحدود. وصلنا بعد مسافة عشر دقائق سيراً على الأقدام إلى العمود الحدودي (رقم ٩٢) على المستوى نفسه تقريباً، وعلى السلسلة التالية، واسمها ظهر موباد، وهو نصب جيد البناء شبيه بذلك الذي شاهدناه في بدوة ولكنه أقل منه إعداداً. وصلنا خلال عشرين دقيقة بعد أن واصلنا السير على الطريق المتعرج لهذه البلاد العارية المتدحرجة إلى مضيق يفصل مسيلين ضحلين يجريان في اتجاهين متضادين، هما سيل شعيب ملصة ويتجه جنوباً ناحية وادي جحام، ومسيل شعيب منمتين ويجري إلى أسفل إلى ضمد، يسمى هذا المضيق نيد الغرو، وقد تم تعليم الحدود البدوية القديمة بعناية فوقه بصف من قطع الصخر مثبتة وهي قائمة في التربة.

كانت توجد على إحدى الصخور خدوش لأثر الرصاص، وإلى جانب ثلاث علامات وسم متشابهة، ربما يشير ذلك إلى عدد الضحايا الذين سقطوا في معركة في هذا الموقع. يصعب رؤية العمود الحدودي الرسمي (رقم ٩٣) وذلك لأنه قد وضع في فجوة في الشريط القديم وبدأ كأنه جزء منه، كان هذا العمود على مستوى أقل مقارنة مع أعمدة موباد التي سبقته وذلك لأن المضيق كان في حوض ضحل يفصل السلاسل المعقدة عن التالي والذي يقع إلى أعلى قليلاً، ويسمى القرية والذي على قمته توجد هذه الأكوام التعيسة من الحجارة التي تم تسجيلها رسمياً كعمود حدودي باسم رزمة القرية وتحمل الرقم (٩٤)، وتقع على ارتفاع (٣٤٠٠) قدم فوق سطح البحر، وقليلاً ناحية الغرب من نيد أم خرمة.

تقف كومة من الحجارة على موقع أعلى بالقرب من وسط السلسلة ولا تعلّم هذه الكومة حدوداً قبلية أو دولية، إلاَّ أنها تشير إلى الطريق الذي يؤدي إلى مشرب الوغرة على حافة ضمد. أمكننا رؤية موقع عمود نيد جلال الحدودي إلى البعيد ناحية الشمال من موقعنا، كما بدأنا نطل على حوض وادي الخلص، وتوجد به قرية ضربة الصغيرة المدمرة (ثربة) فوق هضبة صغيرة في موقع بروزه من تلال البطين ثم يدور بعنف ناحية اليمين، واصلنا سيرنا غرباً إلى أسفل على امتداد عرن سلسلة القرية ووصلنا خلال ما يزيد على نصف الساعة من مسيرة صعبة إلى كومة حجارة أخرى مكسرة في مضيق منخفض على ارتفاع (٢٦٠٠) قدم فوق سطح البحر، يسمى نيد أم ثوع ويفصل بين مجريين هما أم رضة وينساب أسفل إلى ضمد، وشعيب بلا اسم يجري إلى أسفل إلى وادي الخلص أو جحام، كانت مجموعة الحجارة التي وضعت في شكل غير مشرِّف بما يجاورها من أكوام حجارة البدو العديدة على رأس التل والتي يتكرر ظهورها ونحن نقترب من موقع

المشرب، هي العمود الحدودي (رقم ٩٥). نستطيع رؤية غيل شعيب جرعة، وهو أحد روافد الخلص، الذي يمتلك فيه علي بن فرحان حقاً عرفياً تم تسجيله له بواسطة لجنة الحدود، لأجل سقي قطعانه منه برغم أنه يقع داخل أراضٍ يمنية.

توجد مجموعة من العشش الحجرية الدائرية الجيدة البناء على الجانب المحجوب من الرياح من السلسلة التالية فيما يلي القرية، وتقع قريباً من هذا الموقع ويبدو أنها غير مأهولة تنتمي إلى البدو في أرض يمنية. مررنا بها ناحية اليسار ونحن نهبط فوق أرض متموِّجة، عارية، حجرية إلى العمود الحدودي التالي الذي تم تسجيله رسمياً باسم نيد أمضراط -رقم (٩٦)، على ارتفاع (٢٥٠٠) قدم فوق سطح البحر-. لقد فرض هذا الاسم الغريب على هذا العمود وبالمناسبة لم يكن العمود موجوداً بالرغم من أن ابن فرحان أسرع في وضع عدد من الحجارة مع بعضها، وكان يظن أن أحداً لم يره لتحديد الموقع - وذلك بسبب حادثة مشؤومة. ذلك أن أحد أعضاء لجنة الحدود قد أخرج ريحاً (ضرط) وقد خرق ذكاء البدو اتفاق اللباقة -وهو أمر خطير في المجتمعات العربية العالية، التي تسمح وتشجع القذف- بهذا الاسم المرتجل.

تعلّم كومة الحجارة موقع التقاء ثلاثي بين أرض عياش على الجانب اليمني وأرض سعيدي وخالدي على الجانب السعودي. تتبع الحدود بين قسمي بني مالك، حوضاً ضحلاً، يتعمق تدريجياً ويضيق في ممر تحفه جلاميد ويعبر من خلال الينابيع الحارة لوغرة ليتصل مع وادي ضمد بعد مسافة معتبرة فيما يليها، كادت الشمس أن تغرب الآن، وتركنا أعمالنا الخاصة بالحدود في الوقت الحاضر لنسلك هذا الطريق لنعود إلى زملائنا، الذين قد استقروا منذ فترة في المعسكر الذي يقع فوق مروج خضراء، على حافة بريكة في وادي ضمد على ارتفاع

(٢٢٠٠) قدم فوق سطح البحر، و(٣٣٠٠) قدم أسفل نيد أم أثبة، التي يمكن اعتبارها رأسه المؤثر.

أخذت معي بعض الملابس النظيفة بعد أن استرحنا قليلاً في المعسكر ثم توجهت إلى ينابيع الوغرة لأستحم، وكررت ذلك في الصباح. تسيل الينابيع الحارة من داخل قاعدة صخور جرانيتية في الممر وربما من موقع اتصالها مع الصخري الشستي التحتاني، على بعد (٥٠٠) ياردة من فم الممر، حيث تكون المياه لا تزال دافئة وهي تنساب إلى ضمد لتكوين الغيل الذي يجري إلى مسافة معتبرة أسفل المجرى. ينتهي غيل أعلى يسمى جزومه قليلاً فوق المروج التي نعسكر فوقها حيث كان بطن الوادي الحصوي جافاً تماماً.

تنساب المياه الساخنة من بركة داخلية أبعادها (١٠ × ٥) ياردات ويبلغ عمقها أربعة أقدام، وتعلوها من الخارج كتلة صخرية ساقطة من الجرانيت، وقد كانت مثقوبة بواسطة نفق طبيعي يقود إلى بركة ضحلة أكبر، والتي يخرج منها جدول ضيق عبر الممر إلى ضمد. كانت درجة حرارة الجو في الصباح (٧٠) درجة فهرنهايت، وكانت درجة حرارة الماء (١١٣) درجة. يخصص هذا الجانب لسباحة الرجال، بينما تم حجر البركة الخارجية للنساء. واللاتي يجدن في الغابة اللطيفة للممر درجة من الخصوصية. يقوم بزيارة هذه البرك عدد كبير من الزوار، معظمهم من اليمن، علاجاً للروماتيزم والأوجاع المماثلة.

كنت فرحاً بالحمام الذي أخذته في المساء بعد مسيرة مرهقة وصعبة ومتعرجة فوق سلاسل السفوح الجبلية، كانت الصفة العامة للصخرة متماثلة مع تلك التي اعتدنا عليها في الجبال، ما عدا اتجاه توضع صخور الشست التي أصبحت تميل

نحو الوضع الأفقي بدلاً من العمودي. ثم تصير مسطحة تماماً كما في مجرى ضمد، بينما أدت بعض الاضطرابات الصخرية المحلية في ممر الوغرة إلى حدوث الينابيع الحارة، وإلى توضع صخور الشست على النظام العمودي مرة أخرى. كان الجرانيت الأحمر أكثر انتشاراً أثناء مسيرة النهار ويكون أحياناً فوق الشست كتلاً ضخمة وأحياناً يكون متداخلاً معه. كانت الجلاميد في ممر الوغرة من الجرانيت وكان الشست من خلفها على الجانبين.

وجدت إشكالاً يتنامى في المعسكر عند عودتي من حمام المساء بنشوب شجار قديم كان بين سعد وفرج، لقد كنت طلبت من فرج أن يقوم بتسديد كل فواتير المواد التي تجلب إلى المعسكر، ويصر سعد الآن أن فرج كان يدخل المال لجيبه الخاص وأنه لا يقوم بتسديد أسعار الضأن وأشياء أخرى لم يسدد قيمتها. كان هذا أمراً خطيراً لا يمكن تجاهله، ولذا قمت بتحقيق فوري بمعاونة عبدالله بن شرقة ورؤساء القبائل. اتضح تماماً أن تلميحات سعد لا أساس لها، وتأكد لي تماماً أن كل شيء قد تم تسديد قيمته. كان سعد خجلاً تلك الليلة. لقد خدمني سعد لعدة أعوام غير أنه كان هو نفسه عدو نفسه السيء الوحيد، كان دائماً يختلق المتاعب وكان بصفة عامة سيئاً في عمله، كسولاً، وغير كفء، ولا يمكن أن استغني عنه كخبير تصبير الحيوانات. لقد قمت هنا وفي مواقع أخرى في التلال، باكتشاف طائر التفاحية الجذاب اليمني، وأصبح طائر الجنة صائد الذباب شائعاً هنا وجميلاً كعادته، كانت غابات الوغرة مليئة بالبلابل، وكانت طيور أبي مطرقة متجمعة تصيد أسماك المينو من مياه الغيل.

صعدت مع المرشدين وذلك قبل انطلاقنا لأداء عمل اليوم، لصباح الغد، إلى قمة الجرف الذي يطل على المعسكر من أعلى فم ممر الوغرة، لفحص الأرض التي

سنتعامل معها في مسيرتنا التالية. كانت ينابيع وغرة الحارة داخل أرض سعودية بالطبع غير أننا في نيد أمضراط وصلنا إلى موقع، كان فيه الخط الحدودي ولأول مرة في كل مداه، موضع شك ونزاع بين القبائل على الجانبين - عياش وآل خالد - وللحكومات التي هم من رعاياها. لم تتمكن لجنة الحدود من إنهاء الأمر، بل قامت بتعليم الشريطين بالأعمدة الحدودية وأن تترك الحل والقرار النهائي، لموافقة الحكومتين، بالأسلوب القبلي العادي. لقد واجهتنا حالة حدودية مماثلة من قبل، فيما يتعلق بمقبرة ثعلة عند ملتقى وادي مروان ووادي العرض في قطاع نجران، ولقد قضي في أمر هذا النزاع في الموقع نفسه بواسطة ممثلي الحدود، حينما أحضر المدعون من وايلة خمسين شاهداً قاموا بأداء القَسَم بأن المقبرة تحتوي على رفات موتاهم، وأنها كانت كذلك وظلت كذلك.

كان جزء كبير من أرض المراعي، في الحالة الحالية هذه، على الجانب الأيسر لضمد متضمنًا، وكانت عملية تجميع المعلومات الضرورية والإثبات معقدة جداً للتخلص السريع. انقضى أكثر من عام ولا يزال الموضوع معلقاً مع وجود أرض لا مالك لها بين المجموعتين المتنافستين، كان المبدأ الذي تم تبنيه للحل النهائي لهذا الموضوع بسيطاً.

يقوم الخالديون وقسم آل عزة من السعيديين شراكة باستعمال الأرض موضع النزاع -لا يتضمن أي قرى للرعي في الواقع-. يبقى على المدعين وهم قبيلة آل عياش، أن يتحملوا عبء الإثبات بأن لهم الحق في استعمال الشريط الذي يزعمونه. كان كل ما عليهم فعله هو إحضار خمسين رجلاً من قبيلتهم الخاصة لأداء القَسَم أن هذا هو الحق. يبدو الأمر سهلاً، غير أنه ليس كذلك إطلاقاً، وذلك لأن المدافعين الخالديين لهم الحق في اختيار خمسة من بين الخمسين شاهداً التابعين لآل عياش، ولابد أن يكون القَسَم بالإجماع.

يمكن لمعارض واحد من بين الخمسين أن يسقط القَسَم، ويكون القرار في صالح المدافعين. لقد اختار الخالديون رجالهم الخمسة منذ فترة، إلاَّ أن العياشيين لم يجمعوا بعد الخمسة والأربعين المتبقين، بينما وافق الخالديون بلا تحفظ على قبول الشريط - أحد الشريطين المتنافسين - بشهادة أداء الخمسين بكاملهم للقَسَم. يوضح قصور قبيلة عياش أن مطلبهم لا يقوم على حقيقة قبلية، سأتبنى من حيث المبدأ الخط الذي يتزعمه الخالديون لغرض وضع الأرقام على الأعمدة مع طقم محتمل لمزاعم عياش.

عدنا على أعقابنا فوق مسيل الوغرة في اتجاه عمود نيد أمضراط الحدودي، وذلك بعد أن ألقينا نظرة من الجرف وحددنا كيفية العمل.

وصلنا وعبرنا مجرى شعيب دهنة بعد مسيرة أربعين دقيقة، وقد هبطنا من سلسلة قرية متجهين نحو وادي الخلص، الذي وصلنا إلى جانبه الأيمن أعلى موقع الالتقاء خلال دقائق قليلة، ثم وصلنا في وقت لاحق وعلى مسافة (٥٠٠) ياردة أعلى الوادي إلى فم ممر شاهق والذي من عنده يجري الوادي من سلسلة البطين في غدير جذاب صغير. يطلق على الممر اسم نقيل الغنم أو «ممر الغنم» ووقف عند فمه، على حافة الصخرة العمود الذي وضعه الخالديون لإبراز حقهم. كان رقمه هو (٩٧س) (س تعني سعودي) عند الموقع الذي يجب أن تعبره الحدود في خط مستقيم من عمود نيد أمضراط الحدودي، كان الارتفاع هنا (٢٣٠٠) قدم فوق سطح البحر، وكانت صخور وجلاميد الجرانيت الشديدة الانحدار وجلاميد الشست تأوي أعداداً كبيرة من الأرانب الأوروبية، وقد رأيت العديد منها وهي تهرب إلى جحورها الصخرية في أعلى الصخرة، وذلك أثناء قدومنا، كان المنظر لطيفاً عند فم الجرف، كانت جدرانه منقرة ومحفوراً بها العديد من المناطق المنعزلة

المظللة، وقد تحولت إلى تعريشات حقيقية بغطائها النباتي المزدهر مدعمة بالمياه المستديمة. يقع الموقع التالي الذي يطالب به الخالديون ناحية الجنوب الغربي من الممر عند هضبة تسمى حدَّة -كانت قمتها ترتفع إلى ٢٥٥٠ قدماً فوق سطح البحر- وتطل على مجرى شعيب حدّة الذي ينبع من سفوح هرم عياش وينساب تجاه الغرب ماراً بهذا التل ليتصل مع وادي الخلص على مسافة نصف الميل إلى أسفل -سنرقم هذه النقطة بالرقم (٩٨س)- ويمتد منها الشريط الخالدي ناحية الجنوب الغربي إلى الموقع التالي وهو أم فرحة[١]، على مسافة منا.

يتضح من هذا المطلب أن كل وادي الخلص من أسفل الجرف إلى موقع اتحاده مع ضمد عند مجنب أمبحا[٢] -إلى الغرب من هضبة حدَّة- هو ما يُنادى به من العربية السعودية، ويحدد مطلب قبيلة آل عياش خط الحدود بأنه يمتد مباشرة من نيد أمضراط[٣] إلى شجرة التين البرية الضخمة رقم (٩٧ ي) (ي تعني يمني)، عند المجنب وأمبحا بالقرب من فم وادي الخلص، تاركاً بذلك كل وادي ضمد للخالديين، إلاَّ أنه يضع كل مجرى الخلص تحت ملكية العياشين. سلكنا -بناءً على هذا- طريقنا من حدَّة إلى وادي الخلص وتتبعنا مجراه إلى أسفل إلى مجنب أمبحا على مسافة نصف الميل من موقع الاتحاد -حوالي (٢٢٥٠) قدماً فوق سطح البحر- عند أسفل موقع اتصال مياه غيل الخلص مع الجدول الجاري لضمد. كان سوق الأحد في ذروته أسفل شجرة تين ضخمة ويقال إن معظم من حضروه كانوا

---

(١) أم فرحة: يطلق عليها أيضاً (الفرحة) وتلفظ أحياناً (أمفرحة). (ابن جريس).

(٢) أمبحا: تلفظ أيضاً (البحا). (ابن جريس).

(٣) سكان تهامة وبخاصة في منطقة جازان يقلبون حرفي (ال) التعريف إلى حرفي (أم)، مثلا (الشرح) يقال (أمشرح) و(البحا) إلى (أمبحا) و(السرمة) إلى (أمسرمة) و(الخرمة) إلى (أمخرمة) وهكذا. (ابن جريس).

من مجموعات فرود واليهانيـة، وتشتمل الفرود على عناصر من كل من آل عياش والبطين والعر، كلهم متوحشو الشكل، نصف عراة وهم يمضغون مخلوط البرتقال ويبصقون فوق المكان.

تحركنا بعيـداً عن السوق بعد أن تفقدنا أكـشاكه الفقيـرة المحتويات، وجلسنا أسفل صخرة من الشست مائلة ذات ظل بارد تكون الجانب الأيمن لضمد. سرعان ما أحـاط بنا حشـد كبيـر وركزوا اهتـمامـهم علينا بدلاً من اهتمـامهم بسـوقهم وأصبحت نصف المساحة فارغة. لم يكن لديهم ما يقولونه، بل جلسوا بقناعة في الظل يراقبوننا ويمضغون ويبصقون.

لم نمكث هناك لأكثـر من نصف ساعة وسـرعان ما كنا نتحـرك على جانب الغدير مـتوجـهين ناحية الموقع التـالي الذي يطالب به العيـاشيـون. تركنا الجدول والمروج العشـبية لـضمد لنصل إلى ذلك الموقع فـوق أرض صخـرية على الجانب الأيسر لضمد الذي قد جرَّحته أعـداد كبيرة من المسايل الصرفية إلى أن وصلنا إلى البرك الصخـرية الرائعة التي تسمى الحنكر[١] في ممر لطيف مفتـوح ينحدر ناحية ضمد. كانت أرضية الممر من صخر جـرانيتي قد أملسته حركة السيول وفي بعض المواقع قد تحفّر إلى برك ذات أعماق مختلفة كانت ذات مياه مستديمة.

يطالب العياشون بأكبر هذه البـرك وأعمقها بأن تكون هي نقطة الحدود -رقم (٩٨ ي) على ارتفاع (٢١٥٠) قـدماً فوق سطح البحر-، تاركـين عدداً من البرك الصغيرة داخل أراضيهم والبرك السفلى تابعة للخالديين.

---

(١) الحنكر عمـود حدودي بين آل عـزة وآل خالد من (السعـودية) وآل عيـاش من (اليمن)، انظر: عـبدالله القباع. المرجع السابق، ص ٤١٢ . (ابن جريس).

تأخرنا هنا لما يزيد عن الساعة، جالسين على حافة السفوح العظيمة الملساء الجرانيتية حول البركة الرئيسة التي كانت مليئة بالأسماك الكبيرة، التي لا يقل وزن العديد منها عن الرطل الواحد، وقفزت كلها في هجوم عنيف على فتات الخبز الذي كنا نسقطه في الماء ونحن نتناول غداءنا، تأسفت إذ لم تكن معي سنارة صيد السمك، ذلك لأن الأسماك كانت أكثر مكراً من أن تدخل في شبكة لصيد الفراشات والتي كنت قد استخدمتها مرة أو مرتين بلا فائدة للحصول على عينة. يعتقد أنها من نوع القَرْخ، وهو النوع المستوطن في هذه الأنهار العربية. أزعج قدومنا إلى هذه البرك عدداً من البط، بينما كان على رأس الشجرة الوحيدة النامية بجوار السطح المائي الكبير عش كبير لطائر أبي مطرقة مبنياً على مستوى منخفض جداً، برغم أن هذا الموقع لا بد أن يكون مصيفاً مطروقاً للرعاة.

وصلنا إلى رأس مسيل بطنه صخري عند موقع التقائه مع شعيب كحلة[1] ناحية الشرق من شعيب محد ناحية الجنوب الشرقي، تتبعنا مجرى محد وهو يدور إلى الأمام فوق مسار متعرج وبه العديد من البرك الصخرية على فترات، وكان هنالك نبع يسيل بلطف من داخل الصخر الشستي بين زخم من نباتات كزبرة البئر وغيره من السراخس.

تحركنا مع المجرى بعد مسافة إلى أعلى لنعبر سلسلة منخفضة من جرانيت رمادي تقع في محور الشمال الغربي والجنوب الشرقي عند أقصى نقطة بها، لتكون النواة للعمود الحدودي التالي على الشريط الذي يطالب به الخالديون إذا تم

(١) شعيب كحلة: – اسمه الصحيح (قرن مكحلة)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٢ . (ابن جريس).

تدعيمه، كان هذا الموقع هو الفرحة عمود حدودي محتمل (رقم ٩٩ س) عند ارتفاع (٢٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، وقليلاً ناحية الغرب من آخر موقع على هضبة حدَّة. كان المنظر كئيباً بصفة عامة، برغم كثافة أشجاره، وهو فوق أرض متموجة سفوح جبلية، وتقع قمة جبل العر ناحية الجنوب وتسيطر على المنظر، ويجر فيفاء أذياله ناحية الغرب إلى أسفل ناحية ربوات وسلاسل منخفضة على الجانب الأيمن لضمد. يقع جبل عياش ناحية الشرق، وتربطه سلسلة متواصلة مع العُر الذي كانت هذه السفوح الجبلية هي الوجهات الخارجية له والتي تتدحرج إلى أسفل إلى ضمد.

يجري مسيل جبرية من سلسلة أم فرحة (الفرحة) إلى أسفل حول الحاجز الجرانيتي لشعيب محد الذي دخلنا مرة ثانية إلى جزئه الأعلى لفترة، ينحدر الشعيب من سفوح عياش، غير أننا تباعدنا عنه على طريق أقصر لنعبر العرن المنخفض الذي يمتد من قاعدة العُر. يطالب الخالديون بالممر الذي يوجد عند قمته بكونه موقع نقطة حدودهم الرابعة المتنازع عليها (رقم ١٠٠س) وتسمى نيد أم رزم على ارتفاع (٢٥٠٠) قدم فوق مستوى البحر، وبداية انطلاقه شعيب ملصة الذي تتبعناه إلى أسفل فوق مسيل ضيق غير مثير للاهتمام تنمو فوقه بكثافة شجيرات خفيضة جافة وبعض شجيرات الطلح، إلى حيث العمود التالي غير موجود الذي يطالب به السعوديون، لقد كان هذا العمود مثبتاً على الجانب الأيمن للمسيل لتحديد الموقع إلاَّ أنه تحلل تماماً. كان هذا هو العلامة رقم (١٠١س) على ارتفاع (٢٣٥٠) قدماً فوق سطح البحر، ويقع ناحية الجنوب من نيد أم رزم.

تتبعنا الآن انحناءة المسيل ناحية الجنوب الشرقي، حيث اتصاله مع المجرى الحصوي العريض لوادي ضنبة، الذي ينحدر من القسم التابع لقبيلة آل يزيد على

سلسلة البطين. يعلّم هذا الالتقاء بشجرة طرفاء كبيرة وهو معترف به كعلامة حدودية (رقم ١٠٢س)، ويكون رأس وادي حربرب على ارتفاع (٢٢٥٠) قدماً فوق سطح البحر، ويزعم أن كل المجرى من هنا وإلى أسفل - حسب قول الخالديين - يقع داخل الجانب السعودي للحدود. تم وضع كومة حجارة بائسة على نتوء على الجانب الأيسر، وقيل لي إنها عمود حربرب الرسمي المعترف به الذي قبله الطرفان لحل المشكلة.

لا يزال يحيى أم شريف[1] في تمارضه برفقة قافلة العفش، غير أنه توفر لي دليل لمثل هذه النقاط المتنازع عليها وهو الشيخ عزة (سعيدي) واسمه الشيخ يحيى ابن جبران، وموطنه قرية ربيعة بالقرب من ريدة العزة، كان ناصحاً في شرحه لتفاصيل النزاع وأبرز شريط العياشين بأوضح صورة كمطلب خاص به. تمكنا من تضييق الخلاف إلى نقطة يمكن الاتفاق عليها، غير أن الشمس كادت تغرب حينما فرغت من عمود حربرب وقررنا أن نتحرك إلى أسفل الوادي لنعسكر بالقرب من التقائه مع ضمد. لقد كان المجرى صخرياً حصوياً مع مساحات متفرقة من مياه جارية على فترات، تنبثق من نبع عنيف في وسط جلاميد متكومة بالقرب من آخر الأعمدة الحدودية، اتَّسع المجرى إلى أسفل إلى ممر كثيف الأشجار يقع بين صخور عالية داكنة من الشست، سرنا فوقها نازلين مع الظلام الدامس متوجهين ناحية ضوء مصباحي المشع في المعسكر. كانت الساعة السابعة مساءً حينما وصلنا، لنجد رفاقنا في انتظارنا فوق رف خشبي عريض على الجانب الأيسر للوادي في موقع يدور فيه في انحناءة حادة جنوباً فوق موقع التقائه مع ضمد. كنا هنا على ارتفاع (٢٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. وكانت الليلة لطيفة ذات سحب، وكانت هنالك

(١) يحيى أم شريف يطلق عليه أيضاً اسم (يحيى الشريف). (ابن جريس).

رطوبة خفيفة في الهواء، وكانت درجة الحرارة الدنيا (٦٢) درجة، ولم يكن هنالك ندى، تميز كل اليوم بالنسيم اللطيف مقارنة مع يوم الأمس الذي كان حاراً ورطباً.

لقد كنا هنا في أمر مهم في تجولاتنا هذه، والآن وبعد أن فرغنا من النقاط المتنازع عليها، فلا بد من وقفة لفترة، شغلناها بالنظر إلى النظام العام للسفوح الجبلية وهي تقترب من سهل تهامة، ذهبت إلى ربوة مناسبة في الصباح قريبة من معسكرنا، كان مجرى حربرب، يلتوي ويدور في أجزائه السفلى خلال غابة جميلة يكثر فيها طائر العجلة الغامض، وطائر صائد الذباب الفردوسي والبلابل وطيور الشقراق الحبشي وطيور السوّادية، وطيور أخرى عديدة، يصب في ضمد عند موقع يبعد حوالي ميلين من معسكرنا، وعلى مسافة تقارب الميل الواحد فوق موقع دخول وادي عفرة، الذي ينساب على الجانب القريب للسلسلة التي تحمل الاسم نفسه وينتهي في موقع اللقاء مع جدول جارٍ (غيل) يسمى حجفًا. يخرج ضمد إلى آخر مجموعة من التلال السفحية بين الطرف الشمالي لسلسلة عفرة والأطراف الخاصة لعرنين، منخفضين يجريان خارج قاعدة فيفاء هما روحان والشرحاء. كان هذا هو ما أمكننا رؤيته من ضمد، باستثناء ضبابية الغيوم التي تحلق فوق سهل تهامة فيما يلي التلال.

تقع كتلة العُر الآن ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا، يقع جرف بارز يسمى القعبة على النهاية الغربية للسلسلة، وهي سلسلة مرتفعة وتنحدر سفوحها الكثيفة الأشجار إلى جانب وادي حربرب الأيسر. نستطيع الآن رؤية شريط الحدود وهو يجري من عمود حربرب إلى جرف القعبة ثم يعبر سلسلة عفرة بالقرب من قلعة جور (قور) أم وضف. لا نستطيع رؤية أي شيء فيما يلي ذلك، غير أننا في

موقع تتداخل فيه المساحات القبلية على الجانبين في شرائط معقدة. يفصل عمود ملصة الحدودي -مثلاً- بين الخالديين والعزاويين على الجانب السعودي، وبين عنصر البطين التابع لبني منابة، وظل العياشين إلى الخلف من وراء نيد أم رزم، والتي هي نقطة لقاء ثلاثي. وتفصل علامة حربرب الحدودية ومعها العمود الحدودي لقرن مكحلة بين الخالديين والعزاويين على جانب وبين عناصر العُر التابعة لبني منبة على الجانب الآخر، لا يبدو أن هنالك خطاً أرضياً يفصل بين الخالديين والعزاويين.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف صباحاً (١٤ يناير) عندما بدأنا نسترجع خطانا إلى وادي حربرب لمواصلة مسح الحدود. يتصل الوادي على مسافة الميل الواحد تجاه أعلى الوادي مع العُر عن طريق مسيل واسع لشعيب كفر والذي بعده بقليل تركنا المجرى، لنعترض مخترقين أرضاً ذات سلاسل كثيفة الأشجار ومتدحرجة تمتد من الخلف من جانبه الأيسر، مساحة غير منسقه ذات شست مائل، يترتب على زاوية (٢٥) أو (٣٠) درجة من ناحية الغرب إلى ناحية الشرق. وصلنا إلى العمود الحدودي قرن مكحلة، وذلك بعد أن تتبعنا القمة لإحدى هذه السلاسل الجبلية، سالكين مسيل الخرش (أيضاً من العُر) الذي يمتد على طول قاعدة الجانب الشرقي، يقع عمود قرن مكحلة إلى الجنوب الغربي من عمود حربرب الحدودي، الذي يوضع بأسلوب مماثل على الجانب الأيمن لشعيب اللهب بالقرب من التقائه مع الوادي الرئيس.

لقد أوضحت من قبل أن عمود حربرب معترف به رسمياً من كلا الطرفين عند إحدى نهايات الأرض المتنازع عليها تماماً كما تم الاعتراف بنيد أمضراط على النهاية الأخرى. بناءً على العلامات على الشريط التي يطالب بها الخالديون، فهي

تحمل الرقم (١٠٣س)، مع وجود علامتين معترضتين فقط في كل من المجنب وأمبحا (البحا)[١] والحنكر، فهي بالرقم (٩٩ ي) في حساب اليمن. لقد اخترت الرقم الأكبر للملاءمة في مواصلة التسلسل العددي مع الحذر بأنه إذا تم قبول مطلب بني منبة، سيكون هنالك أربعة أرقام يتم إسقاطها من العدد الإجمالي لعلامات الحدود. مهما كان ذلك، فإن قرن مكحلة، التي ترتفع إلى (٢٥٥٠) قدماً فوق سطح البحر، تصبح هي العمود الحدودي الذي يحمل الرقم (١٠٤).

دخلنا الجانب الأعلى من شعيب كفر بعد أن هبطنا من السلسلة على الجانب الغربي. ثم واصلنا السير فيه حتى مجراه العريض، وكنا في صعود وارتفاع متواصل. مررنا هنا بتركيب بنائي غريب. اتضح فيما بعد أنه فرن بدوي أو المقوجة التي يستخدم لاستخلاص الراتنج بحرق شجيرات مختلفة في هذه البلاد كثيفة الغابات. يستخدم الراتنج لعلاج جمالهم من الجرب وغيره من الأمراض الجلدية. يمتد المجرى الآن من قرن مكحلة إلى حيث ينحدر مجرى جيف ويتحد معه على طول الخط الحدودي، الذي يمتد مباشرة من قرن مكحلة عبر البلاد وإلى أعلى سفح القعبة إلى قمته (رقم ١٠٥) والتي فوقها لم تر لجنة الحدود ضرورة لإقامة عمود حدودي، وضح السبب لذلك حينما بدأنا التسلق للسفح الكثير الأشجار، على شريط مسيل جيف. كان شديد الانحدار وصعباً لأبعد الحدود،

(١) فيلبي ذكر هذا العمود الحدودي باسم (مجنب أمبحا) وهو المعنى نفسه لاسم (مجنب البحا)، ولكن بعض المصادر التي دونت الحدود بين السعودية واليمن ذكرته باسم (مجنب البحار). ثم أثناء تجوالي في هذه المناطق الحدودية في شهر المحرم عام (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) وجدت بعض الرواه يذكرون هذا المكان كما ذكره فيلبي فيقولون (البحا) وليس (البحار)، مع أن هذا الاسم أيضاً وجد في بعض الوثائق الحدودية باسم (مجنب البحار)، ولكن سوف نبقى على ذكره كما ذكرها فيلبي، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٢، آل زلفة، **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٧٣ . (ابن جريس).

وكدت أن أقنع نفسي بالتوقف عن الصعود إلى أعلى أكثر للقمة الفعلية، حينما وصلنا إلى مضيق عند قاعدتها، حوالي (٢٠٠) قدم أسفل القمة وعلى السلسلة التي تربطه مع عرن العُر الكبير وتنحدر من طرفه الشمالي وكان المضيق نفسه على ارتفاع (٣٣٠٠) قدم وعليه تكون القمة من فوقه حوالي (٣٥٠٠) قدم.

تقع القعبة ناحية الشمال الغربي من العُر، وتنحدر انحداراً شديداً على الجانب البعيد من المضيق مع ميل شديد الانحدار، ويتفلطح عند قاع الدائرة التي تكونها السلسلة في واد عريض قصير يسمى شعيب مجنة. يتصل هذا المجرى قليلاً أمامنا وناحية الجنوب الغربي، مع آخر يقبل من العُر ويسمى شعيب القمحة، ليكون وادي عفرة، الذي، كما ذكر أعلاه، ينساب إلى قاعدة السلسلة التي تحمل الاسم نفسه ليتصل مع ضمد. تكون سلسلة عفرة هذه الحدود بين بني حريص الجنوبية على جانبها الجنوبي، والخالدي إلى الشمال ثم إلى قلعة جور الودافة المدمرة، بينما تكون على الجانب نفسه الحدود الجنوبية لأهل العُر (بني منبة). تكون الأطلال تبعاً لهذا هي موقع لقاء ثلاثي بين كل من حريص وخالدي والعر. يسمى الاتصال الفعلي بين القمحة ومجنة لتكون عفرة باسم أمثميلة[1]، تشتق من حقيقة أنه موقع شرب، وكان هذا هو مكان معسكرنا لقضاء الليل، على الرغم من أنه بقي علينا الكثير من العمل قبل أن نستقر أخيراً لننال الراحة.

يقع العمودان الحدوديان التاليان أسفلنا وعلى جانبي رأس شعيب مجنة عند قاع مسيل شديد الانحدار يهبط من المضيق، ويبتعد الخط الحدودي بينهما عن

(١) أمثميلة تسمى (تبري أمثميلة). انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٢ مع أن ابن زلفة أوردها باسم (شري أم شميلة)، والصحيح هو (أمثميلة)، حيث هي من الحدود الواقعة بين قبائل أمشيخ اليمنية، وآل خالد وآل غزة السعودية. انظر: ابن زلفة، المرجع السابق، ص ٢٧٣، بالإضافة إلى جولاتنا في هذه المناطق الحدودية في شهر المحرم عام (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م). (ابن جريس).

الجزء الأسفل للوادي في أرض الخالديين ويكون الجزء الأعلى تابعاً لمقاطعة العُر في اليمن. وصلنا بعد هبوط يعادل (٥٠٠) قدم أسفل المسيل، في طريقنا إلى مجنة، إلى بقايا عشة دائرية مبنية من الحجر، بقيت منها طبقتان فقط -ولربما كانت برج مراقبة أو مركز حراسة- إلاَّ أنه لا حاجة لها الآن لإنذار وتحذير سكان قرية مجنة أسفل السفح بالخطر الذي يترصدهم به الأعداء.

كانت قرية صغيرة من عشش حجرية أو من القش (الوتل) وتسمى القفلة وتسكنها عناصر شبه بدوية من الخالديين والعزيين وآل أمشيخ (بني منبة)، كلهم يعيشون معاً في وئام فوق أرض العُر. تقع على ارتفاع (١٠٠٠) قدم أسفل المضيق وتشتمل فقط على حوالي (١٢) عشة، وقد قوبلنا هناك حين وصولنا بكرم فياض في التعبير عن التقدير أبداه لنا امرأتان وبعض الأطفال -ذلك لأن كل الرجال كانوا غائبين في أعمالهم، وقد أحضرتا لنا أباريق القهوة وقحفاً كبيراً مملوءاً باللبن الرائب، ونحن جلوس تحت ظل شجرة كبيرة وتحيط بنا الماعز والضأن وكلاب القرية، قمت بدفع أثمان ما قدم لنا من كرم في وقت متأخر من اليوم بحرية في الدفع أكبر لقاء المواد التي أرسلت إلى المخيم -لم نضيع الوقت تحت الظل، بل سرعان ما واصلنا السير تتبعنا الكلاب النابحة إلى مسافة، والتي كانت صامتة حينما كنا بالفعل داخل القرية، وذلك بمتابعتها لنا فوق سفح منحدر صعب، على الجانب الأيمن لتتفقد عمود حرف أم عبادة، وهو عبارة عن كومة تعيسة من حجارة في حوض ضحل يجري فوق قمة العرن الذي ينحدر من سفح القعبة.

كان هذا هو موقع العمود الحدودي رقم (١٠٦) عند ارتفاع (٢٧٠٠) قدم فوق سطح البحر وحوالي (٤٠٠) قدم فوق مستوى القرية. يقف إلى الجنوب من موقعنا، وعلى شريط يترك القرية إلى اليسار - داخل أرض يمنية -، العمود

الحدودي التالي فوق جرف من شست أسود يطل على القرية ويسمى غباس، وهو الذي يحمل الرقم (١٠٧) وارتفاعه (٢٥٥٠) قدماً.

لم يكن هنالك ما يثير الاهتمام في هذين الموقعين اللذين قمنا بزيارتهما بعد مشقة. تعرج بنا شعيب الخرق[١] أثناء هبوطنا من الموقع الثاني، وهو رافد من روافد مجنة حتى وصلنا إليه وتسلقنا إلى قمة الربوة المرهقة في أكثر المناظر بؤساً لجبال سفحية حرقت الشمس صخورها. هبطنا حوالي (٢٠٠) قدم من غباس إلى المسيل ثم صعدنا أعلاه إلى (١٠٠) قدم إلى أسفل التل الذي شمخ إلى ارتفاع (٢٩٠٠) قدم فوق سطح البحر، وجدنا عند قمته بعد زحف خطر، ضرباً من الزريبة من بقايا الحروب القبلية القديمة ولم نجد عموداً حدودياً. لقد ثبت بعد التحري أن لجنة تعليم الحدود التي عهد إليها بمهمة تعليم الحدود، حين وصلت إلى المنظر الجميل لمجنة اكتفت بالنظر من بعد، وللزريبة اكتفت بذلك أيضاً ورأت أنه يؤدي وظيفة العلامة ولا ضرورة للعمود. ولم يكلفوا أنفسهم حتى بإرسال أحد الرعاة ليبني بعض أكوام الحجارة، وعليه فقد تم تسجيل الزريبة وتحمل الرقم ١٠٨ في قائمتي.

لقد ذكرت لجنة الحدود هذه كثيراً في صيغة المجموعة، ولعله من المفيد للتاريخ أن أذكر أسماء الأفراد. كان لكل قسم من الحدود بالطبع طقمه الخاص به من المسؤولين عن تحديد الحدود، غير أن أولئك المسؤولين عن هذا الجانب بالذات الممتد من بئر أمشرح إلى سهل تهامة كانوا: من الجانب السعودي أبي مسمار من الشرطة، والذي كنا قد قابلناه في ظهران[٢]، كممثل رسمي، وعلي بن فرحان

(١) شعيب الخرق، عمود حدي بين قبيلة آل أمشيخ اليمنية وآل خالد وآل عزه من بني مالك السعودية. (ابن جريس).

(٢) ظهران: يقصد بها ظهران الجنوب في بلاد وادعة الواقعة إلى الشمال والشمال الغربي من بلاد نجران وهي اليوم محافظة من محافظات منطقة عسير، وتبعد عن أبها حوالي (١٣٠ ــ ١٥٠كم). (ابن جريس).

من آل سعيد، ويحيى بن جبران من آل غزة، وعلي بن يحيى (ابن يحيى أم شريف) من الخالديين، وأحمد بن حسن أيضاً من الخالديين، وحسين بن سالم من آل قطيل (خالديين) وعددهم ستة، ومن الجانب اليمني، جارالله بن جمعان من سحر، ومفرح بن سليمان من العُر، (بني منبة)، وعلي بن حسن أبو طاقة من آل أم شيخ وفرحان بن عياش من عياش (بني منبة) وعددهم أربعة. لا يمكن القول بأنهم لم يضعوا خط الحدود في وضوح تام من النهاية إلى الأخرى غير أن الأسلوب الذي أدوا به العمل، مع تحاشي العمل إلى أقصى حد والإزعاج، لا يستحق الإطراء.

لقد استمتعنا بالنسيم البارد الذي هبَّ من ناحية الجنوب الغربي، إذ كان تسلقنا غير مريح فوق هذه التلال، نتعرج في التجاويف وبينها، وكنا نتوقف على قممها، بينما إلى البعيد في سهل تهامة، وقد بدا لنا وكأن عاصفة رملية كانت تهب هناك، كان الضباب كثيفاً مما حجب الرؤية في ذلك الاتجاه. كان المنظر في التلال من حولنا بصفة عامة مألوفاً، ومن هذا التل تمكنت ولأول مرة من رؤية قرية داخس الجميلة إلى يسار تل (طوالة) على سلسلة البطين، ومسجدها البارز الأبيض اللون. كان اتجاهنا إلى الجنوب من عمود غباس الحدودي، بينما كان عمود جور الودافة الحدودي، بجوار القلعة المدمرة، التي سنقوم بزيارتها غداً، يقف فوق سلسلته ناحية الجنوب الغربي. تجاوزت الساعة الخامسة مساءً حينما فرغنا من مسحنا من الخرق وهبطنا إلى أرض الخشن المتموج الصخري الذي يفصله عن مجرى وادي القمح.

لقد استغرق وصولنا إلى قمح نصف الساعة وكان مجراه رملياً، عريضاً، وكثيف الأشجار، وهبطنا من عنده إلى العمود الحدودي التالي وهو عمود ضبرة

(ثبرات) أمضس (رقم ١٠٩ على ارتفاع ٢٢٠٠ قدم). كان هذا الوادي مميزاً بوفرة غطائه النباتي وبحجم أشجاره، معظمها آصم وسرح غير أن أشجار الضبر عند عمود حدودنا كانت عظيمة ذات ظل يعقد تحتها مجلس القرية أو يرتاح فيه قطيع أغنام. كان العمود نفسه مسلة جميلة يرتفع فوق كومة حجارة واضحة المعالم، وكانت هنالك عشة راعٍ منفردة على الجانب السعودي للحدود وقريبة جداً من الشجرة.

لاحظنا، قبل وصولنا إليها، مجموعة صغيرة غير أنها تثير الشكوك من البدو التابعين لفرود وهم يتجولون بجوار مسيل جانبي، كأنما كانوا ينتظرون حلول الظلام لتنفيذ أمر سيء يجول في نفوسهم. انزعج كل من يحيى بن جبران ويحيى أم شريف، اللذين هبطا معي هذه المرة للمشاركة في مسيرة هذا اليوم، لهذا الظهور غير المتوقع الذي لا نرحب به، وذلك أثناء ما كنا جلوساً تحت الشجرة، ورجاني كلاهما ألاَّ أتجول بمفردي دون حراسة، كما كانت عادتي في المعسكر ومعي البندقية وشبكة صيد الفراشات.

لم يكن هنالك شك في هذا المساء، وذلك لأن الظلام قد أطبق بالفعل، حينما وصلنا إلى فم وادي مجنة واستدرنا لنلحق برفاقنا في المعسكر فوق أرض خضراء لطيفة مطعمة بأشجار العلب ويقع بين الجانب الأيسر لمجرى السيل الفعلي، والذي لا يزال مبللاً في بعض أجزائه بسبب الأمطار الأخيرة والسيول، وبين السفح الكثيف الأشجار لعرن القعبة، الذي نهض فيما يليه إلى أرض السفوح الجبلية التي نتجول فوقها الآن. كنا هنالك على ارتفاع (٢١٠٠) قدم فوق سطح البحر وكان الندى كثيفاً أثناء الليل، إلى جانب أن فمه يصب في وادي قمح ليكوِّن وادي عفرة، فإن وادي مجنة، الذي لا يزيد طوله عن الميل الواحد محاط

تماماً بسفوح القعبة الكثيفة الأشجار وذات العرنات التي تبرز على الجانبين. كانت مساحة تشبه الكمثرى في الشكل، وكانت نهايتها السميكة تجاه أعلى الوادي، وكما يدل عليها الاسم، فهي عبارة عن جنة صغيرة مليئة بالطيور. كانت طيور الماء توجد بوفرة في السفوح الكثيفة الأشجار، وقد تمكنت من الحصول على طائر السمنة الصخرية، وطائر الصرَّد المحلي وطائر أبيض العين. وكانت طيور الثرثار والبلابل توجد بوفرة أيضاً وكانت نداءات طيور الماء في الصباح الباكر شجيةً.

كان معسكر مجنة مركز لقاء لتغيير المرشدين وجمال العفش. لقد أرسلنا الرسائل، قبل ليلتين من معسكرنا عند ينابيع الوغرة الحارة إلى أمير العارضة، نخبره بموعد وصولنا وطلبنا منه إرسال ممثلين لبني حريص الذين سندخل أراضيهم، وحيوانات جديدة لحمل العفش. أصابنا الفزع حينما وصلنا ولم نجد أحداً في استقبالنا، وبدا لنا أننا سنمكث هنا لفترة غير محدودة. قمت بوداع كل من حتروش وعلي بن سلمان والشيخ زيداني وحردان في معسكر حربرب. لقد كانوا لطافاً ورفاقاً مثيرين للاهتمام وكنت أسفاً أن أراهم يذهبون، غير أنهم كانوا سعداء بأن يجدوا حرية عودتهم إلى أوطانهم، وكنت أتمنى أن يكونوا مقتنعين كما يبدو عليهم، بالمكافآت التي يستحقونها؛ مقابل خدماتهم التي لا تقدر بثمن.

لم يظهر أحد في الصباح. وكسبت الوقت وخرجت ومعي بندقيتي وشبكة صيد الفراشات إلى الغابات من حولنا على مسافة أسفل وادي عفرة، لم تظهر شخصيات الأمس المشبوهة حياة أو نشاطاً، وكان كل ما قابلته في أثناء تجوالي هو مجموعة من الصبية الخالدين، يقومون بمراقبة قطيع مختلط من ضأن أبيض وماعز أحمر اللون حول مشرب نبع في جرف كثيف الأشجار، منحدر صخري يدخل إلى الوادي من سلسلة جور الودافة. جلست أتجاذب معهم الحديث لفترة

واكتشفت أن لديهم معلومات كثيرة. لقد أخبروني -كمثال- بأن سفوح العُر وسلسلة البطين المجاورة مأهولة بجماعة آل يزيد، ومشهورة بينابيعها العديدة، غير أن قرى بقية البطين وقرى عياش يعتمدون على مياه تخزن في أحواض، حفرها الناس في الصخر. ذكروا لي أن هذه المناطق تزرع البن والموز والتبغ بكميات كبيرة إلى جانب المحاصيل الحبوبية العادية من دخن وقمح وشعير في حقولهم ذات المساطب. كان مشرب الماء هذا مكوناً من بركة صخرية كبيرة أسفل نتوء تظلله شجرة فرفار ضخمة، والتي كانت على أفرعها واحدة من الأعشاش الضخمة لأبي مطرقة. يحمل كل من الجرف ومشرب الماء اسم موارد.

كان مريحاً لنا جداً بعد الأيام الصعبة المرهقة، أن نقيم هنا في هذا الموقع الجميل للبلاد بلا عمل معين. رأيت وقد اقترب الوقت من الظهيرة أن أعود إلى المعسكر لتناول وجبة الغداء. أخذتني الدهشة وأنا أخرج من داخل الغابة عند الجرف إلى المجرى أن أشاهد ثلاثة نصف عراة وهم يحملون بنادقهم بالطريقة المعروفة، أفقياً فوق الأكتاف ومن خلف الرقبة.

انصرف تفكيري مباشرة إلى رجال الأحراش في الأمس ولم يكن هنالك مفر من مواجهتهم. وتجلى الأمر، لراحتي، حينما علمت أنهم طلائع القافلة التي جاءت إلينا من العارضة ومعسكر بني حريص، رأيت خلال دقائق الحمير التي كانت في المقدمة من المنحنى إلى البعيد مع اتجاه أسفل الوادي، وأسرع جمعنا وكنا أربعة أشخاص إلى المعسكر لنبلغ رفاقنا بالأنباء السارة. ثم الإسراع بإعداد الطعام وما هو بالوقت الطويل حين دخلت قافلة الحمير إلى وادينا ووصلت إلينا محملة بشحنات ملأتني سروراً.

كان هنالك صندوقان لشحن البارافين وهما ممتلئان بالبريد الخاص بي، والذي كنت أنتظره بشغف -وأشياء أخرى- تسعة أسابيع من بريد الوطن تغطي الفترة من منتصف سبتمبر إلى منتصف نوفمبر، خطابات وصحف وافرة وشحنة مدهشة من سجائر برما وتبغ الغليون. يبدو الأمر كأنه لا يصدق بعد كل فترة الانتظار الطويلة هذه، كما ازداد سروري أنني أرحب بعودة ابن هذيل، الذي غادرنا قبل اسبوعين مما دعاني لإحضار بطارية للراديو، الذي منذ تلك الحادثة الوحيدة التي تعطل فيها، ظل يعمل بصورة طبيعية حتى اليوم.

كان كل شيء أكثر من جيد الآن، وقررت أن أحتفل بالمناسبة بالإجازة ليوم واحد، وذلك بتأجيل مغادرتنا إلى الغد ونسترخي للظهيرة والمساء وإلى وقت متأخر من الليل لألتهم بريدي مع شاي وسجائر برما، ولا بد أنني قد دخنت نصف علبة في ذلك اليوم، لأظل نشيطاً. ارتكبت خطأ خلال هذه الفرحة بأن قد فات عليَّ أن أملأ نابض ساعة الكرونوميتر، وكانت النتيجة أنني اكتشفت أنها قد توقفت عند الوصول إلى المعسكر في المساء التالي. كان هذا خطأ صغير، ذلك لأن إذاعة القدس كانت تذيع شارات الوقت مما وضع الأمور في نصابها، كان هنالك الكثير من الحديث بين الأصدقاء القدامى والجدد في معسكرنا، غير أنني لم انتبه لذلك، بل تناولت وجباتي بمفردي لكي أواصل قراءة خطابات الأسرة والصحف. لم أكن في عصر ذلك اليوم وفي مسائه وليله في الجزيرة العربية، لا يمكن أن يحس بمتعة مثل هذا الحدث من لم يمر بالتجربة ذاتها.

صحوت عند الصباح على صوت طيور الماء في الغابات بالقرب منا، ولم نضيع كثيراً من الوقت في إعداد الحيوانات الجديدة لحملها وأسيادها فيما يخص

أسرار نقل العفش الثمين، الراديو، والمزواة، وأدوات أخرى، سيرافقنا شيوخ الخالديين والعزيين حتى المعسكر التالي؛ وذلك لأننا لم نفرغ تماماً من مناطقهم، غير أن الأمير عبدالله بن شرقة سيغادرنا ليعود إلى أعماله في القهبة، والتي تغيب عنها مدة أسبوعين. لم يفكر إطلاقاً، على الرغم من صراعه المتواصل مع الحمى في الابتعاد عنا أو في الانهزام للحمى وكنت بالتأكيد شديد الأسف لوداعه. لقد انطبع في ذهني كحاكم مثالي بأخلاقه الشجاعة المتواضعة، يتولى الإشراف على هؤلاء الأفظاظ المتوحشين الذين يتصرفون كالأطفال أحياناً، وكان تدينه العنيف يعزز من سلطته عليهم. يبدو أن بني مالك كانوا تحت السيطرة تماماً وكانوا خاضعين برغم كل شهرتهم السابقة بكونهم مزعجين ويصعب التعامل معهم.

لا بد أن يعزى نجاح ترويضهم للحاكم في تعامله معهم بأسلوب لطيف وباستثناء حتروش، فلا أحد من الشيوخ الذين كنت قد رأيتهم يبدو أنه مبرز. كان كل من علي بن فرحان ويحيى أم شريف، ويحيى بن جبران وشقيقه محمد ناعمين بلا مقدرة على الاحتمال، يرغبون دوماً في الراحة حتى في قمة مسيرتنا الساخنة، يرجفون من البرد في إحدى الدقائق ويهرعون للاختباء من الشمس في دقيقة أخرى كأنهم مجموعة من الأرانب، ودائماً يستجدون الطعام، لم أشعر بالأسف بأن هذا هو آخر أيام مرافقتهم لي، وكنت سعيداً أن أراهم يغادرون المعسكر في الساعات المبكرة من صباح الغد غير أنه، مع كل المآخذ التي أبدوها، فلم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً بدونهم ورافق كلمات وداعي لهم شيء أكثر صلابة يحملونه معهم في حقائبهم. لقد كانوا رفاق جولاتي مدة أسبوعين أو أكثر فوق هذه الجبال، ونحن الآن نفترق بلا مجال للقاء بالتأكيد.

ضرب فريقنا مسيرته فوق وادي قمح إلى أعلى السفح الشديد الانحدار للعرن الصخري الكثيف الأشجار الذي يقود إلى أسفل إلى سلسلة عفرة بين مسيلي موارد، على يميننا، ومليح على يسارنا، بينما اتجهت قافلة العفش لتسلك طريقها المناسب، لتصل إلى موقع معسكرنا التالي في الوادي. يرتفع رعن مسلة هذا إلى (٧٠٠) قدم إلى قمته على حافة رف يرتفع فيما يليه إلى قمة عفرة، التي وصلناها بعد تسلق استمر ساعة ونصف الساعة عند العمود الحدودي لجوار جور الودافة (رقم ١١٠) على ارتفاع (٣١٥٠) قدماً فوق سطح البحر. يصل خط الحدود مباشرة إلى هذا الموقع من علامة ضبرة أمضس على جانب وادي قمح، وتكشفت الأطلال، التي كنا قد رأيناها على بعد، حين وصولنا إليها عن ثلاثة أبنية تشبه القلعات المحطمة، بنتها قبيلة بني حريص لحراسة حدودهم، والتي تساير حدود الخالديين غرباً إلى هذه النقطة ومع العُر (بني منبة) شرقاً.

تتكون قمة السلسلة على جانبها من شريط من ألواح شستية شبيهة بالمنشار موضوعة على زاوية (٤٥) درجة من جهة الغرب ناحية الشرق. لم تكن العلامة الحدودية بجوار الأطلال عموداً بل شريطاً من ألواح طولها (١٢) قدماً وبارزة إلى قدمين فوق السطح. تنحدر السفوح أمامنا إلى أسفل إلى وادي كثيف الأشجار تحفه على الجانب البعيد سلسلة كل من حيران والمشرَّق ولكنه ينفتح إلى الخارج ناحية الشرق، ويكشف عن لمحات من الجانب الجبلي من وادي جازان، وهو يجري بين سلسلة عالية تسمى المشوي على الجانب البعيد وقريباً من سلسلة فسوة السفلى وتقف في الاتجاه نفسه قمة فضّة التي يوجد فوقها عمود حدودي عند مضيق سلسلتها التي تنحدر إلى أسفل إلى وادي جازان.

ألقينا نظرة على التركيب القبلي المتباين الذي يقع أمامنا الآن ويختلف عن الذي وراءنا، وقد أشار مرشديّ إلى سمات عديدة في أراضي كل من قبائل العبادل وآل مظهر وقيس، ويمانية ومجموعات أخرى، دون ذكر شيء عن الكتف اليمني العظيم المكونة من قبائل رازح وحرم والنظير. أمكننا أيضاً رؤية أجزاء من العُر، لم نكن قد رأيناها من قبل، وبعض القرى الجديدة. استطعت أن أتعرف في كتلة هذا الجبل الوحيد على ما يقارب (١٦) قرية مميزة ولا بد أن يكون هنالك أكثر من هذا العدد على السفوح المعاكسة وفي الانطواءات الجبلية وفي العرنات. كما ذكرت لي أسماء ما لا يقل عن (١٢) قرية تابعة لقبيلة عياش، وأكثر من ذلك على سلسلة البطين، وكان انطباعي العام أنه يوجد ما لا يقل عن (١٠٠) قرية كبيرة وصغيرة في مرتفعات بني منبة ويقدر عدد السكان بحوالي (٥٠,٠٠٠) نسمة. ويعتقد التراث المحلي أن قمة جبل العُر يسكنها الجن.

زارنا بعض الرعاة حينما كنا جلوساً بجوار أطلال جور الودافة، ربما كانوا من منطقة فيفاء. كانت قصتهم أن أحد أقربائهم قد توفي حديثاً وكان يزمع أداء فريضة الحج إلى مكة، غير أنه لم يتمكن من ذلك لا بنفسه ولا عن طريق الوكالة لعدة أسباب. وأصبح الآن ميتاً، ويود أصدقاؤه أن يتأكدوا من دخوله الجنة بترتيب زيارته بعد وفاته إلى مكة عن طريق الوكالة. كان هذا في عرفهم مسموحاً به، ولست متأكداً من الموقف الشرعي لمثل هذه الحالة[1]، غير أن مذهب الشيعة يبدو

(١) الصحيح أنه يجوز لغير القادر على أداء فريضة الحج أن ينيب عنه من يقوم بذلك، أما الحكم لشخص بدخول الجنة من عدمه فهو راجع لله سبحانه وتعالى واسع الرحمة. وعدم انتشار التعليم أو من يقوم بتوعية الناس في أمور دينهم على المنهج الصحيح، يجعل عامة الناس يقعون في مثل هذه الأخطاء الشرعية. (ابن جريس).

أكثر تسامحاً في هذه الأمور، ولا يوجد أي شك في العلاقات الضرورية بين قبائل تهامة هذه وبدع الزيديين. قام أصدقاء وأقارب المتوفى بجمع بعض الأموال لتسديد أتعاب الوكيل نيابة عنه، عرفوا أننا قد قدمنا من مكة وسنعود إليها وعليه كان حضورهم إلينا لمناقشة المسألة. نوى يحيى بن جبران أن يؤدي فريضة الحج هذا العام على أي حال لشخصه هو، ويمكنه أن يتعامل مع أكثر من عدد من الوكالات كما يحب شريطة أن يصير لكل حالة المراسيم المطلوبة بدقة باسم الشخص الذي ينوب عنه[1]. وتمت المعاملة في يسر، وأدى يحيى القَسَم للقيام بالشعائر المخلصة لمهمته هذه في الحال فوق سلسلة جور الودافة. أخذ يحيى وهو ممسك بيدي رئيس وفد الرعاة وبناءً على ما يمليه عليه هذا الرئيس يكرر القَسَم تلو القَسَم بكل ما يقدسه هؤلاء القوم البسطاء بأنه سيفعل كل ما هو مطلوب في حجته التالية - والتي تبقى لحلولها شهران - وبعد الفراغ من أداء هذا القَسَم، سلمت إليه صرة من الفضة، تحتوي على المبلغ المقدر في حدود (٤٠) ريالاً، وقد قام بِعَدِّ ما فيها من ريالات، للتأكد بأن السعر الكامل قد تم استلامه. وعاد الرعاة وهم مسرورون لمواصلة أمور حياتهم.

تمتد سلسلة عفرة من جهة الجنوب الشرقي لتتصل مع عرون العُر، ويستمر خط الحدود فوق قممها، ودائماً على المستوى نفسه، إلى حيث العمود الحدودي التالي، أو بالأحرى، كومة من ألواح ملقاة مع بعضها البعض فوق كتلة مائلة من الشست بجوار بقايا حصن مبنى من ألواح مماثلة. كان هذا هو الذي يحمل الرقم (١١١)، وكنا عند ارتفاع (٣٢٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر. كان التسلق

(١) من يتوكل للحج عن شخص ما فإنه يحج فقط لهذا الشخص المتوكل عنه، ولا يستطيع أن (يتعامل مع أكثر عدد من الوكالات) كما ذكر فيلبي. (ابن جريس).

فوق السفوح من الوادي عملاً صعباً، إلا أنه كان لطيفاً فوق هذه السلسلة مع نسيم لطيف وسحب كثيرة من حول المرتفعات المجاورة. هبطنا الآن على السفح البعيد وسرعان ما وصلنا إلى رأس مسيل معجمين وتجري بجواره الحدود إلى بركة غدير حصر أم غيشانية، مسطح مائي كبير على هيئة النجمة في خزان طبيعي عميق من جرانيت رمادي، تآكل حتى أصبح أملساً، عند موقع انحدار إلى (٢٠٠) قدم من الشست، والذي لا بد أنه يقوم بعرض شلال رائع خلال السيول. لم تكن المياه هنا مستديمة لأنها تعتمد على تكرار السيول وكذلك حال برك أخرى صغيرة في المسيل، وبالرغم من أنه لا يوجد عمود حدودي هنا فإن هذه البركة قد تم الاعتراف بها كعلامة حدودية، وأعطيت الرقم (١١٢) في التسلسل. وتقع على بعد (٨٠٠) قدم أسفل قمة عفرة وحوالي (٢٤٠٠) قدم فوق سطح البحر.

يواصل المسيل اتجاهه ناحية الجنوب الشرقي لما يزيد على الميل الواحد، ليتصل مع خطوة القفلة[1] وهو مجرى ينحدر من العُر إلى وادي أجبه الذي هو رافد لوادي جازان. يُكَوِّن شريط سلسلة عفرة من العُر وغرباً فاصلاً مهماً بين وادي ضمد وجازان. كان هنالك عدد من الرعاة التابعين لأم شيخ مقيمين بجوار هذه المياه، عند مرورنا الذي كرهته كلاب رعيتهم.

يقع المجرى بالكامل في الأراضي اليمنية، إلى أسفل البركة، ويعتلي خط الحدود سفوح سلسلة نصيب إلى قمتها بارتفاع (٣٠٠) قدم ومن ثم إلى قمة بقرة المنخفضة التي تطل على المجرى من الغرب، ثم تتجه الحدود بمحاذاة الجانب الأيمن باتجاه مجرى القفلة. لا يوجد عمود حدودي على هذه القمة الذي يمكن، إعطاؤه

(١) خطوة القفلة: نقطة حدودية بين بني حريص (السعودية)، وآل أمشيخ (اليمنية). (ابن جريس).

الرقم (١١٢) أ، على ارتفاع (٢٧٥٠) قدماً فوق سطح البحر. عبرنا القمة عن طريق مضيق على الجانب الأيمن، حيث هبطنا من مجرى بقرة إلى شعيب شوامي، ويعد الأخير امتداداً لقفلة أسفل العمود الحدودي عند نقطة تقاطعه مع معجمين والأخير، وكذلك مجرى آخر من الجانب البعيد يدعى الجحيرة. وهكذا يشكل وادي شوامي، أسفل القفلة، الحدود الدولية وكذلك الحدود القبلية بين بني حريص (سعودي) وأم شيخ (يمنى)، كما يشكل معجمين الحدود بين سلسلة عفرة والقفلة. توجد على مدخل بقرة قريتان صغيرتان، هما صبران ومقام على جانبي مجرى شوامي، التي يسكنها عناصر من أم شيخ اليمنية، على الرغم من أن صبران تقع في الأراضي السعودية.

توجهنا إلى عمود قفلة الحدودي رقم (١١٣) بعد أن قمنا بفحص هذه الترتيبات المعقدة المتشابكة للقبائل والأنهار، ويعد عمود قفلة الحدودي واحداً من أفضل الأعمدة في كل الشريط، ويشمخ إلى ارتفاع ستة أقدام فوق هضبة هرمية بارزة فوق وادي شوامي على رأس نهاية انحناء على شكل حرف (S) - انحناء مزدوج - للمجرى، يجري مسيل بقرة إلى المجرى عند نهايته السفلى. كان هذا كومة حجارة حدودية قديمة وقبلية، وقد تم تحسينه كثيراً وتم بناؤه بصورة متينة بأمر لجنة الحدود، التي تستحق أن يشاد بها حينما يكون لذلك مبرر كافٍ. هبطنا هنا إلى ارتفاع (١٩٠٠) قدم فوق سطح البحر، وهذا هو أول موقع في كل الحدود يقل ارتفاعه عن (٢٠٠٠) قدم. قمت بتصوير العمود الحدودي احتفالاً بهذه المناسبة ويقف بجواره ثلاثة أعضاء رئيسيين. وهم عبدالرحمن العسيري ممثل الحكومة الرسمي الذي أوفد من العارضة، وبالمناسبة فهو من دماء عربية تركية مختلطة، وذلك لأن والده قد خدم تحت نظام الأتراك في أبها وتزوج من امرأة

محلية، وموسى بن مفرح من قبيلة آل عمر تحت قسم بني حريص، ومحمد بن علي من قبيلة أم شيخ.

يحمل منحنى الوادي غيلاً لطيفاً جارياً كان ينساب في بطء، حينها فوق بطن رملي حصوي. كان مملوءً بالأسماك الصغيرة وقد قيل لي إن هذا الوادي قد بدأ من مسافة بعيدة في المجرى. توقفنا قليلاً هنا للاغتسال لأجل صلاة الظهر، قبل مواصلة المسيرة إلى أسفل إلى العمود الحدودي التالي رقم (١١٤) عند مدخل مسيل الحوك من المرتفعات على يسارنا على مسافة (١٥٠) قدماً أسفل من موقعنا. لقد كان مجموعة صغيرة من كومة حجارة متوضعه فوق جرف من جرانيت رمادي يبرز قليلاً فوق الوادي من الجانب الأيسر للوادي قليلاً أعلى من موقع الالتقاء. واجهتنا مرحلة صعود صعبة بعد أن عبرنا الرافد، على السلسلة المقابلة في طريقنا إلى عمود الدقيقة[1] الحدودي الواقع فوق قمتها ويطل على مسيل سلحات على الجانب البعيد، الذي ينحدر من سفوح فضة العالية الكثيفة الأشجار. يقف عمود الدقيقة الحدودي رقم (١١٥) فوق مستوى الوادي عند ارتفاع (١٩٠٠) قدم فوق سطح البحر ولكنه لا يسيطر على منظر شمولي. تأخر الوقت كثيراً وأسرعنا أسفل السفح البعيد إلى داخل مجرى سلحات وسرعان ما وصلنا إلى موقع لقائه مع وادي ثروة المهم -أيضاً ينحدر من فضة- على ارتفاع (١٦٠٠) قدم فوق سطح البحر.

وصلنا بعد مسيرة عشر دقائق فوق مجرى ثروة إلى موقع التقائه مع وادي شوامي ليكوّن أجبة، وهو الموقع الذي اخترناه لمعسكر الليلة. كان رفاقنا قد

(١) عمود الدقيقة الحدودي: هكذا سماه فيلبي مع أن المراجع والوثائق التي أشارت إلى هذا العمود سمته (رأس الدقيقة)، ولهذا سوف نستخدم ما ورد في الوثائق والمراجع. (ابن جريس).

استقروا بالفعل هناك، وقد اختاروا للمعسكر موقعاً جميلاً على سفح جانب الوادي عند موقع الالتقاء أو قليلاً أسفل منه. هبطنا الآن إلى ارتفاع (١٥٥٠) قدماً، وهو أدنى ارتفاع وصلناه عند موقع سوق عيبان فيما يلي فيفاء.

تغذي كتلة جبل العُر التي ترسل مجاريها إلى أسفل على جانبي سلسلة عفرة، كلاً من وادي ضمد ووادي جازان اللذين يجريان مستقلين عبر الجبل والسهل وينتهيان معاً في الدلتا نفسها أعلى ميناء جازان. يعد شوامي واحداً من الروافد المهمة لنظام جازان، والذي ينبع أصله الرئيس إلى الخلف في الجرف العظيم لمقاطعة صعدة، ويعرف في جزئه الأعلى باسم وادي معبر حتى ما يلي التقائه مع وادي عِنا وحينها يصبح اسمه جازان. تكوّن أجبة الاستمرار لمجرى شوامي بعد تدفق ثروة. يذوب غيل شوامي الجاري في هذا الموقع، الذي كان متواصلاً من أعلى القفلة في الرمال، ويصبح المجرى العريض المسطح جافاً وهو يخرج من مساره المحاط بالصخور، ويدخل فراغ أجبة الذي يشبه الدلتا، التي يوجد فيها وعلى جانبي الوادي عدد من القرى الصغيرة التابعة لبني حريص يقع أسفل معسكرنا، على الجانب الأيسر للوادي قسمان من قبيلة محشرة، بينما تقف أطلال داود على الجانب الآخر منه بجوار تل المشرَّق.

لم تكن قشعة وهي على الجانب نفسه غير مجموعة من عشش البدو، بينما على الجانب نفسه تعلّم قرية عوراء موقع تدفق شعيب عورا داخل أجبة وكان شعيب العوراء هو الطريق الذي سلكته قافلتنا وما هو إلاَّ مجرد استمرار لشعيب البقعة، الذي ينبع من الصفحة القريبة من عفرة، وينحدر عبر موقد من تلال منخفضة، المشرَّق، جازان.. إلخ التي تفصلنا عن وادي ضمد. لم يكن أي من

هذه القرى أو التلال ذا أهمية، غير أن انكشاف الجبال يدل على أننا لسنا بالبعيدين من حافة سهل تهامة، كما يوجد اختلاف بيِّن في الصفة العامة للسكان في هذه البلاد المنخفضة. لقد مضى اللطف وأحياناً الإزعاج والتبجح الذي اتصف به ساكنو المرتفعات وحل مكانه إحساس بالضجر والكآبة. ويعيش الناس في بيوت بائسة وقد بلغ بهم الفقر مداه.

كان يوماً ممتعاً بصفة عامة. كانت البلاد كثيفة الأشجار وبها الأشجار النموذجية والنمو التحتي للسفوح الجبلية وكثيراً ما كنا داخل مدى رؤية أو سمع القرود، وهي تبحث عن الثمار التوتية بين جنبات أشجار المظ والغلفة. كان مسيل بقرة مميزاً بأشجار التمر الهندي (الحمرة) الجيدة النمو إلى جانب برك شوامي الممتلئة بأسماك المنوة. كان المرشدان التابعان لبني حريص ومعهما شيخهما، موسى بن مفرح، غير واضحين بصفة عامة فيما يخص جغرافية بلادهم بالرغم من أنني استطعت أن استخدم رجلاً من قبيلة آل أمشيخ – واسمه محمد بن علي – من بين الرعاة عند بركة حصر لأجل التعويض عن قصورهم، وقد وجدت لذلك ما يبرره، وذلك لأن المنطقة التي نتابع حدودها كانت بالفعل خالية من أي عناصر تابعة لبني حريص، وكانت مخصصة للرعي لآل فيفاء، وبني مالك، وقيس، وأم شيخ.

بعد أن استقر بنا المقام في المعسكر، حيث لحق بنا علي بن شنتوف، شيخ قسم أكاوين الذي لم يلحق بنا في مجنة غير أنه حضر بصحبة قافلة العفش، ناقشنا الموضوع بصورة هادئة. يقف معي هنا الشيخان الرئيسان لقبيلة بني حريص، ويرجواني أن أرفع توصية إلى الحكومة السعودية باستبعاد كل هذه المنطقة

التي تقع بين سلسلة عفرة ووادي جازان من إطار سيادة قبيلتهم ومسؤوليتها. لقد أخبراني أن شيوخهم جميعاً ولمدى ثلاثة أجيال قد غسلوا أيديهم بالأمر الواقع، عن الموضوع كله الخاص بهذه المنطقة الحدودية ولا يرغبون في أن تكون لهم صلة بها. لقد أحسوا بالحزن حينما كان موضوع الحدود الدولية تحت دائرة النقاش والمحدودية، إن هذه المنطقة قد تمت إضافتها إلى المملكة العربية السعودية، بحجة أنها كانت تاريخياً، وحسب الروايات المحلية أرضاً تابعة لبني حريص.

كان يمكن لمثل هذا القرار أن يكون غير مهم حسب وجهة نظرهم لولا حقيقة أن الحكومة السعودية، تبعاً لسياستها القبلية، قد أصرَّت على أن شيوخ بني حريص هم المسؤولون عن كل الأحداث المشاكسة فيما كان يعرف بالأرض التي لا يملكها أحد. كانوا يرغبون في التخلص منها تماماً، ولا يهمهم إن كانت قد سُلمت إلى الخالديين أو نقلت إلى اليمن أو اقتسمت بين الاثنين.

كانت حالة غير طبيعية بلا شك، ومطلب غريب يعرض في أمر حدود دولية. لا علم لي بنتيجة هذا الموضوع، غير أنه من غير المحتمل أن تكون فكرة تسليم هذه المنطقة المزعجة إلى اليمن قد أعجبت الحكومة السعودية. سيكون تسليمها الفوري حدث فريد في تاريخ العلاقات الدولية. غير أنه لا شك لديَّ أن شيئاً ما قد تم فعله ليخفف عن رؤساء بني حريص مسؤوليتهم عن منطقة هم حقيقة لا يتحكمون فيها ولا يستعملونها، وسيكون موسى العلي، تحت نظام الحكم السائد في ذلك الوقت، هو المسؤول عن إحضار القاتل أو دية الدم، فمثلاً يتم قتله بواسطة شخص من الخالديين، والعكس بالعكس. كان الشيوخ الخالديين يحسون بالاطمئنان في هذه الأرض أكثر من موسى وقد تعرضوا لغضبي الشديد

عند بركة حصر بإصرارهم على رعاة آل أمشيخ الفقراء أن يعدوا لهم وجبة طعام. نهضت في اشمئزاز وذهبت ماشياً ناحية التل، بعد أن رأيت ما قد حدث، وكان يرافقني موسى ورجال قبيلته، غير أن يحيى أم شريف قد تخلف ليستمتع بطعامهم.

واجهنا حادث مؤسف آخر في معسكر أجبة، وذلك بغياب شيوخ قيس، الذين أرسلنا إليهم رسائل نوضح فيها حاجتنا إلى مرشدين وحمَّالين، لأننا سندخل جانبهم الحدودي الذي سنبدأ العمل فيه في اليوم التالي، كما أرسل إليهم أمير العارضة رسائل مماثلة، ويبدو أنها بلا فائدة، وقد دار الهمس في المعسكر أن الرجال لن يحضروا. كانت قبيلة قيس حقيقة في متاعب مع السلطات السعودية في العارضة، لم يسددوا زكاتهم ويبدو أنهم لا يرغبون في دفعها. هاجرت كل القبيلة من المناطق التي يمكن الوصول إليهم فيها في أرضهم ولجؤوا إلى الجبال، ربما عبر الحدود، حتى يكونوا خارج نطاق جامعي الزكاة والشرطة المرافقة لهم. كانوا حقيقة مضربين وبسلبية شديدة، وأعتقد أنهم سيقاومون أي محاولات لإجبارهم. كان هنالك أمر آخر لم يهدأ بينهم وبين الحكومة سببه عدد من جرائم القتل التي وقعت في أرضهم والتي على ضوئها أُمروا بدفع دية الدم التقليدية في موعد محدد، وقد انتهى منذ زمن بعيد. كان الموضوع غير مقنعٍ من وجهة نظر الحكومة وحينما تم إرسال أحد الأفراد للتأكيد لجابر بن جبران بن حتلان أن زيارتي المزمعة لفحص الحدود لا شأن لها بمطالب الحكومة في أمر الزكاة والدية، عاد الرجل ليقول إنه لم يجد إلاَّ النساء والأطفال فقط في القرى والمعسكرات، ووضَّح أنه سيكون عليَّ أن أتوقف عن دراسة هذا الجزء من الحدود في الوقت الحاضر. كان أمراً مزعجاً ولكن لا مفر منه.

انصبَّ حديثنا أثناء المسيرة وفي المعسكر على أسلوب تنظيم القبائل في هذه المنطقة. ويتكون الجزء الجنوبي من قبيلة بني حريص من قسمين رئيسين هما: أكاوين تحت رئاسة علي بن مفرح بن حسين بن شنتوف، وقسم آل عمرو تحت رئاسة موسى بن مفرح بن علي العمري. كان كلاهما موجوداً معنا. زعما بأن قبيلتهما تكون جزءاً من مجموعة اليهانية والذي اشتق من أصل مشترك يدعى يهنوي، المنحدرة من خولان بن عامر. واعترفا في الاتحاد الكونفدرالي بكل من بني مالك، وبني حريص الشماليين وآل فيفاء، والعبادل، وقيس، وآل تليد، وآل جماعة، وآل سلا - وتتكون تحت أقسام الجابرين والسفيانيين والوداعيين والمعنين والحريصيين -. ثم صنفا قبيلة قيس إلى ثلاثة أقسام هي: آل محتم تحت رئاسة حسين بن كردام، وآل علي تحت رئاسة شريف بن جبران بن دخنان، وآل فيضة، تحت رئاسة جابر بن جبران بن حتلان. وتقع طبقاً لقولهما، إلى الغرب من قيس كل من آل سلا والعبادل. واعترف خبيرا حريص فيما يخص الفرود بما يلي مكوناً للاتحاد الكونفدرالي: بلغازي، والحساب - وشمال بلغازي - بني آل أمشيخ (الشماليين) والصهاليل وهروب والريث - وتقع الأربعة الأخيرة فيما يلي، شمال شرق بني حريص - وآل أمشيخ، (الجنوبية)، بني منبة - وتتكون من آل أمدوشه[1]، وآل عامر وبني كثير، وآل سوار، وبني خولي، وعياش وآل اللهب - ، وآل غمر (اليمنيين)، ورازح وسحر. ويبدو أن هنالك الكثير من التساهل في التفسير المحلي للتقارب النهائي للعديد من هذه القبائل، وعامل النفوذ متداخل في معظم الحالات.

(١) آل أمدوشة: هكذا ذكرهم فيلبي ويطلق عليهم أيضاً اسم (آل دوشه)، والاسمان صحيحان. وهم يسكنون في وادي الخرش ويشاركهم في مواطنهم آل اللهب. (ابن جريس).

بدأنا عمل اليوم دون أن ننتظر فريق قبيلة قيس، تاركين أحمالنا للمواصلة فوق مجرى أجبة إلى الموقع المحدد للالتقاء في وادي جازان. تتبعنا خطواتنا السابقة التي تقودنا إلى موقعنا مساء الأمس في وادي ثروة، مارين بالتقاء سلحات ووصلنا، قليلاً بعد ذلك، إلى الموقد أو فرن حرق الراتنج، ويسمى موقد أم حيدر، وهو معترف به رسمياً علامة حدودية تالية رقم (١١٦) يلي علامة دقيق. كان ارتفاعنا عند هذه النقطة (١٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، وواصلنا السير على الوادي الذي يكون الحدود، ويفصل بين بني حريص وآل أمشيخ. مررنا بعد ذلك بمجموعة صغيرة من بيوت البدو المبنية من الحجر وتبدو غير مأهولة إلاَّ أنها تنتمي إلى عناصر من قيس آل أمشيخ، غير أنها على الجانب السعودي (اليسار) لمجرى الوادي، ويطلق عليهم اسم حجاف ثروة.

ثم وصلنا بعد قليل إلى ماء ثروة وهو ثقب مائي في الرمال، محمي بحافة من بناء مفكك. صعدنا الآن إلى ارتفاع (١٦٥٠) قدماً، وواصلنا ارتفاعنا مع الوادي، ثم مررنا بموقع تدفق شعيب وجخة وهو مسيل ينحدر من سفح فضة على يسارنا عند ارتفاع (١٩٠٠) قدم، ثم تركنا المجرى يدور إلى أعلى إلى رأسه عند فضة، وتسلقنا سفحاً سهلاً غير أنه كثيف الشجر إلى مضيق نيد أم ثروة فوق عرن ينحدر بشدة من قمة فضة عبر الحدود. وجدنا هنا العمود الحدودي (رقم ١١٧) عند ارتفاع (٢٠٠٠) قدم وتقع قمته على يسارنا حوالي (٥٠٠) قدم فوقنا. يحمل امتداد عرن فضة على يسارنا اسم صبة، وينتشر فوق أرض مرتفعة واسعة تجاه زاوية أجبة – جازان. وينحدر أمامنا تماماً ناحية الجنوب الشرقي، مسيل صخري شديد الانحدار، يسمى ثروة، إلى وادي جازان إلى البعيد من هنا والذي رأينا لمحة منه لأول مرة.

كان شمال وادي ثروة موقعاً جذاباً يميل في لطف فوق أرض شبه غابية، تكثر فيها النباتات العطرية التي تحلق فوقها الفراشات بأعداد كبيرة. كان الجو هنا في الأسفل خانقاً وساخناً وبلا هواء، وسعدنا براحة قصيرة على الممر وقد هبَّ علينا نسيم لطيف أمكننا رؤية كتف كل من رازح العظيم والنظير على بعد وتفصلنا عنهما سلسلة من تلال منخفضة يقال إنها تكون الحدود، وفي بعض الأجزاء عليها بعض الأعمدة الحدودية.

لقد سجلت أسماءها للرجوع إليها مستقبلاً، وذلك لأننا سنترك هذا الجانب من الحدود دون فحص في هذه المرة بسبب السلوك الرديء لقبيلة قيس، الذين في أرضهم تقع كل من حبرة وتلين باسم ملغوب ومن أحدهما ينحدر شعيب الخويرمة ليتصل مع وادي يمنَا قبل اتصاله مع معبر لتكوين وادي جازان.

يواجهنا الآن مجرى ثروة الجنوبي، وهو مختلف تماماً عن اسمه. كان جرفاً محاطاً بالصخور، شديد الانحدار، به العديد من البرك المائية ينحدر في شلالات إلى أسفل السفح. وصلنا بعد زحف فوق أرضه الصعبة على جانبه الأيمن استغرق عشرين دقيقة إلى بيوت للبدو مبنية من الحجارة، ومبانٍ أخرى على هيئة خلية النحل تكون قرية خية شوكان الصغيرة، وهي مهجورة وتمتلكها قبيلة قيس، وعلى الجانب السعودي للحدود، التي تجري إلى أسفل الجرف، وتفصل قبيلة آل أمشيخ اليمنية عن قبيلة بني حريص، كما فعل ثروة الشمالي.

تجمعت أسفل هذا مرة أخرى عشش شط ثروة، وهي مستوطنة تابعة لقبيلة قيس وهي مهجورة، وتقع على جانبي بركة مستديرة في الجرف، بينما إلى البعيد وعلى ارتفاع (١٧٥٠) قدماً فوق سطح البحر - و(٢٥٠) قدم أسفل المضيق -

توجد شجرة ابراه كبيرة تنشر ظلها فوق ملتقى مسيل ثحلة فضة مع جرف ثروة. كانت هذه الشجرة -وقد قيل لي ذلك- هي العلامة الحدودية الرسمية وهي أيضاً موقع التقاء ثلاثي بين كل من آل أمشيخ (اليمن) وقيس وبني حريص (كلاهما سعودي). كانت الحدود أيضاً دولية بين الاثنين الأولين هي مسيل ثحلة، ينبع من مضيق يفصل كتلة فضة الرئيسة عن ربوة بارزة تقوم فوقها قرية غينة القيسية. وتمتد ديار قيس أيضا، كما قيل لي، فوق الحدود داخل أرض آل أمشيخ، بين ثحلة ومسيل معض، الذي يدخل ثروة من سفح فضة قليلاً أعلى وادي ثروة.

يستمر جرف ثروة إلى أسفل ليفصل بني حريص عن قيس حتى مجرى جازان. تشمخ فوق هذه الشجرة العظيمة عند الملتقى الثلاثي، هضبة من صخر ذات ممر صعب يقود إلى أعلى. خطر بذهني أن أتسلق لأرى منظراً أفضل للبلاد من هذه القمة، وعلى الرغم من احتجاجات زملائي، فقد بدأت التسلق. ووجدت بمحض الصدفة، عند القمة العمود الحدودي الممتاز (رقم ١١٨) عند ارتفاع (١٩٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان شيوخ بني حريص مستغربين مثلي لهذا الاكتشاف، وأبدوا بصدق عدم علمهم بوجود هذا النصب المهم. كان عليّ هنا وبكل أسف أن أقنع نفسي بإطلالة من بعيد إلى العمود الحدودي التالي (رقم ١١٩) فوق مضيق نيد فضة. لم يكتب لي حقيقة زيارته، وذلك لأن قبيلة آل قيس ظلوا متمردين طيلة فترة زيارتي لهذه الأنحاء.

كان موقع لقاء المسايل مملوءاً بالبرك، بعضها في مساحات رملية، وبعضها في الصخور، وكلها مملوءة بالأسماك الصغيرة. واصلنا مسيرتنا على امتداد الجانب للجرف لنصل إلى قرية منفض الصغيرة (منفث) وقد انتشرت بصورة جميلة فوق الصخور حول بركة كبيرة نسبياً وجميلة وكانت أفضل بركة رأيتها. كانت عميقة

في تجويف طبيعي في الصخر، وينساب من فوق شفتها البعيدة شريط من الماء إلى داخل هوة حقيقية إلى أسفل، يسكن في العشش القليلة لهذه المستوطنة بعض آل بني معن وهم تحت قسم لقبيلة السلا، وقد أكرمونا خلال وقفتنا القصيرة عندهم بالمنعشات من لبن رائب وخبز دخن وقد شاركناهم في هذه الوجبة شاكرين. وقد أفادونا بأن قرى قيس الصغيرة الواقعة إلى أعلى، عادة ما تكون مأهولة، إلاَّ أنهم قد هجروها الآن خوفاً مما ستقوم به الحكومة ضد المضربين. تنحدر الهوة فيما يلي البركة إلى عمق (٨٠) قدماً، عمودياً إلى أسفل إلى وادي جازان، الذي وصلناه الآن بعد هبوط شديد الانحدار.

كان ارتفاعنا عند هذا الموقع (١٦٠٠) قدم فوق سطح البحر، وتوجد عند نهايته السفلى عند انحناءة ثعبانية رشيقة للوادي، من حول الصخرة الكبيرة على جانبه الأيسر، حيث يوجد جدول سريع الانسياب عند مرتفعات حقيقية يدور بعيداً فوق بطن الرمل والحصى المتداخلة مع بروزات جرانيت أملسته السيول. يقع على مستوى الوادي عند موقع الالتقاء عدد قليل من البيوت الحجرية لقرية المصنعة الصغيرة، وهي مستوطنة قيسية إلاَّ أنها مهجورة. يعد وادي جازان من هذا الموقع وإلى الأمام هو الخط الفاصل بين قبيلة قيس على الجانب الأيمن، وآل سلع على الجانب الأيسر حتى فم عِنا الذي بدوره يفصل بين آل سلا على جانبه الأيسر وآل جملة، وهم قسم من قيس انفصل من الجسم الرئيس بمجرى معبر. يكون الوادي إلى أسفل مع اتجاه أسفل الوادي، هو الحدود بين آل سلا وبني حريص، على الرغم من أن عناصر من سلع تحتل حوالي ثلث كتلة سلا عند النهاية الغربية، وتجتمع معاً لأغراض إدارية مع آل سلا. وصلنا إلى بعض العشش (التابعة لقيس)

بعد نصف الميل أسفل الوادي الملتوي -وتسمى قشعة- من المسيل الذي يدخل الوادي عند هذا الموقع من مرتفعات سلا على اليسار.

واصلنا سيرنا ونحن نلف وندور مع الجدول الهائج مرة على هذا الجانب ومرة على الجانب الآخر، مسافة ميل واحد، إلى مدخل شعيب مرقوع من مرتفعات صبا على اليمين. يحاط الوادي في كل هذه المناطق بجلاميد الشست الشامخة بينما برزت العديد من النتوءات الجرانيتية من بطنه. كان كل الوادي وعلى مسافة ميل واحد أسفل فم مرقوع مغلقاً بكتل ضخمة من الصخر، وجلاميد عظيمة مما اضطرنا إلى أن نسلك ممشى ضيقاً كممشى العنز، لارتفاع (٥٠) قدماً إلى أعلى الجانب الأيسر حتى نتقدم بأي شكل كان.

لم يتأثر الجدول بهذه الموانع وجاهد في طريقه وله هدير مرح فوق الصخور أو خلالها، ويبدو أنه يزداد قوة كلما تقدم. كان الجدول مسدوداً جزئياً إلى أسفل بواسطة جدار جرانيتي ليكون بذلك بركة ضخمة، والذي ظل يصب منها فوق شلال أعلى مجراه العنيف. كان أحد طيور البلشون يقف بجوار هذه البركة ونحن نقترب منه إلاَّ أنه طار وأنا أحاول الإمساك به. توقفنا لفترة للوضوء وأداء صلاة الظهر، لنواصل مسيرتنا أسفل المجرى المتعرج غالباً حتى قرية الموشم الصغيرة التابعة لبني حريص، عند ملتقى مسيل حشرة على اليمين. وصلنا فيما يلي هذا الموقع بعد مسيرة متعرجة مسافة ميل واحد تقريباً، إلى موقع التقاء وادي أجبة، حيث انتشر الوادي الأصلي في مجرى واسع مستقيم من رمل وحصى. تقع قرية حجفة الصغيرة على جانبه الأيسر - تتبع لبني حريص -، بينما توجد مستوطنة القرعة، على جانبه الآخر فوق ربوة على كتلة الملتقى، ومعها موقرة، وهي مجموعة عشش على الجانب المواجه عبر الوادي.

تقع كتلة من صخور جرانيتية فيما يلي أجبة بين قرعة ووادي الشرحة، الذي يدخل إلى وادي جازان نفسه على مسافة نصف الميل أو أكثر إلى أسفل. وصلنا الآن لنرتاح في المعسكر أسفل جرف قرعة. تسمى هذه المساحة الشبيهة بالدلتا، على الرغم من أنها منفصلة عن سهل تهامة، بسلسلة حنقة مداخل، لتعلم التقاء هذه الخطوط المصرفية الرئيسة داخل حاجز السفوح الجبلية قبل مواصلتها لتبرز إلى الخارج داخل السهل تحت مسمى واحد هو وادي جازان. كان ارتفاعنا هنا هو (١١٥٠) قدماً فقط فوق سطح البحر.

التمس علي بن شنتوف العذر بسبب الصداع الذي أصابه لكي لا يرافقنا في رحلة اليوم الصعبة، كما لم يكن موسى رفيقاً مسلياً أو مفيداً على الرغم من أنه والمرشدين التابعين له قد أبدوا الرغبة في مواصلة العمل أكثر مما أبداه جماعة بني مالك. يبدو أن مجموعة بني حريص كانوا من الدرجة الثانية. كانوا كالباقين دائماً مسلحين، ولم تكن بنادقهم تفارقهم لحظة حتى في أوقات الطعام، بالرغم من أنني لم أشجع هذا العمل حينما كنت أقاسمهم الطعام. كانت كل البنادق إيطالية الصنع بالفعل[1]، وكان الطراز أبو خصوة هو المحبوب ولابد أن يكون هنالك الألوف من هذا الطراز في هذه المنطقة. تنتمي كل القرى الصغيرة في هذه الأرض إلى بني حريص، الذين يملكون الكثير من الزراعة المسطبية فوق سفوح الوادي وفوق المسايل الثانوية، مثل مسيل أوكان، الذي هو مملوء تماماً بها من جانب إلى آخر وهو ينحدر من سلسلة مشرق المنخفضة إلى موقع قريب من معسكرنا. كانت الأودية الكبيرة بالطبع، معرضة للسيول الضخمة، إذا عوملت بالطريقة نفسها

(١) الطليان كان لهم علاقة حسنة مع إمارة الإدريس في منطقة جازان، وبخاصة صبيا، ولهذا انتشرت السلع الطليانية في بلاد تهامة، وعلى رأسها أدوات السلاح مثل البنادق وغيرها. (ابن جريس).

وكان مضيق جازان العظيم، الذي دخلنا عن طريقه، خال بدرجة مدهشة من الغطاء النباتي. تنتشر المياه أثناء اندفاع السيل من الجانب إلى الآخر وتجرف كل شيء أمامها عدا الصخور. كانت هنالك مساحات من الرمال المتحركة التي تغوص فيها الأقدام والتي لا ينصح بالمشي فوقها.

انتهينا الآن من المرتفعات ونمت تلك الليلة وأنا على علم بأننا سنكون فوق السهل المنخفض في صباح الغد. يحس المرء بذلك في الهواء، غير أن الليلة كانت باردة لطيفة وكانت درجة الحرارة الدنيا (٦١) درجة مع ندى خفيف.

الفصل الثلاثون

سهل تهامة[١]

كانت المدْخال هي البوابة للبلاد المنخفضة، وقبل أن نعبر من خلالها في الصباح، صعدت إلى قمة منخفضة للتلال السفحية بالقرب من معسكرنا، لأطل على البلاد. كما توقفنا لفترة وجيزة، بعد أن بدأنا مسيرة اليوم بقليل وعلى مسافة ميلين من المعسكر، عند مضيق آخر فوق السلسلة الخارجية للغرض نفسه. تقع قمة فيفاء الآن ناحية الشمال من موقعنا، بينما تقع العارضة والتي نرى قلعتها من المضيق، ناحية الجنوب الغربي، كما كان العُر ناحية شرق الشمال الشرقي. وتقع قمة فضة فوق مضيقه وبه العمود الحدودي الذي لم نقم بزيارته ناحية الشرق. كانت منطقتا حرم والنظير اليمنيتين المحصنتين تقفان ناحية الجنوب الشرقي. ويمثل الخط الذي يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي عبر مراكز الملاحظة الخط الفاصل بين المرتفعات والمنخفضات. كانت المرتفعات تفيض فوق المنخفضات إلى مسافة، غير أن سلسلة سلا التي تمتد من مجرى جازان في اتجاه الجنوب الشرقي، تمثل جداراً فعلياً من جرانيت مرتفع يميل ناحية السهل. يكون الجانب الشرقي للسهل رفاً منخفضاً من قاعدة المرتفعات وعدداً من السلاسل المنخفضة الخارجية التي من خلالها تمر خطوط الصرف الرئيسة داخل السهل الساحلي الحقيقي.

يمكن مناقشة تفاصيل المنظر المباشر الذي يقع داخل هذا الإطار في إيجاز. كانت خاصيته المركزية هي بالطبع وادي جازان، داخل دلتا المدخال، والتي فيها

(١) لمزيد من التفاصيل عن سهل تهامة انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٣٧ ــ ٢٦٥ . (ابن جريس).

تتلقى معظم روافده، وفيما يلي القشرة الرفيعة للسلسلة التي يمر خلالها، ليبدأ سيره فوق السهل. يتصل وادي أجبة، من سلسلة عفرة، مع وادي جازان على جانبه الأيمن، في الموقع الذي يخرج فيه من مضيقه إلى داخل الدلتا. يتصل به أوكان من المشرَّق على الجانب نفسه، قليلاً إلى أسفل، بينما يمتد وادي الشرحة، من حرين والشرحة في التلال السفحية عند قاعدة فيفاء، على امتداد سلسلة مكتف المنخفضة، ليتصل مع الجانب الأيمن لجازان قبل مروره خلال السلسلة إلى داخل السهل. تقف أطلال قلعة قديمة عند طرف السلسلة في هذا الموقع، ويطلق عليها اسم الحصن. يخرج عرن من الجانب الآخر لهذا المنفذ، من عند الصفحة الشمالية لسلا يحرس دلابغ إلى داخل جازان فوق جانب السهل من المنفذ.

تقف قلعة السرير التابعة لبني حريص بالقرب من رأس دلابغ على جانب الجبل، بينما تقع قرية إيسان الصغيرة عند موقع تدفقه داخل الوادي الرئيس، على الجانب الأيمن لدلابغ مع بعض العشش المبنية من الأعواد حول شجرة نخيل تمور واحدة، عند مدخل شعيب المضرب من جهة الشمال، قريباً من غيل جازان الجاري الذي يظهر مرة ثانية عند منفذه من التلال ويستمر إلى مسافة إلى أسفل. تقع قرية بياضة الكبيرة التابعة لبني حريص قليلاً أسفل هذا الموقع وعلى الجانب نفسه، وهي مركز سوقهم الرئيس. يفصل دلابغ من الزاوية الشمالية الغربية لسلسلة سلا، بين بني حريص وآل جابر (التابعين لا آل سلا) وحتى مجرى جازان الذي يصبح بعد ذلك هو الحدود، ويكون قبيلة آل حريص إلى الشمال وحتى الوصول إلى بلاد المسارحة في جوار سلاسل منخفضة هي حدج، والمدرة وخلوة، وصقبان والتي ينساب وادي جازان عن طريقها إلى الخارج نحو البحر. كان لبني

حريص مستوطنة أو مستوطنتان هما الوعرة وقعدي على الجانب الأيسر لمدخال، ولكن في الحقيقة، باستثناء هذه المنطقة الصغيرة، فإننا لم نر إلاَّ القليل من بلادهم ما عدا الجزء الذي يرغبون في عدم حاجتهم إليه. رجانا ابن شنتوف أن نسمح له بالانصراف ولما كان قد قدم الكثير من الأعذار لكيلا يرافقني في التلال، فقد تركته يذهب دون مكافأة.

نظرنا ناحية بلاد آل سلا من مضيق معول إلى سلسلتها الجميلة ذات التلال المواجهة للسهل وأخاديدها الجرانيتية الملساء. وارتفع عندها عدد من القمم البارزة، الواحدة تلو الأخرى، على امتداد الجبهة كلها وهي - سلا الحقيقية عند الطرف الشمالي، ومتلاع، والمصيدة (أمصيدة)، والمشبة (أمشبة)، ونجيدة، وقفرة وهلابيهو - اسم غريب - والضبر. وقفت إلى البعيد في سهل تهامة ناحية الجنوب والجنوب الغربي للقمة البارزة المزدوجة الرأس التي تسمى العاصم[1] وتكون سلاسل كل من غراب وشهرين إلى الغرب منها، ويقال إنها تتبع بلاد المسارحة. قادنا مسيل صغير من مضيق المعول عبر غابة كثيفة إلى رأس مجرى يسمى الزُغْبَة، يجري إلى الأمام على طريقنا، إلى مسافة وقد ملأته حقول الدخن المسطبية التابعة لقريتي الجحيرة ومسبة المحليتين. وتقع، بعيداً داخل السهل، وقريباً من مجرى جازان قريتا عرقد وغوية الصغيرتين. وصلنا إلى نهاية هذه المزارع مع تضييق للوادي بين سلاسل صخرية بعد مسيرة صعبة استمرت نصف ساعة. كنا نمشي وذلك لأنهم قد أرسلوا لنا جمالاً لنقل العفش بدلاً من الحمير التي تحملنا كما توقعنا. كان بطن الوادي

(١) العاصم تلفظ في اللهجة الحلية (أمعاصم). وهناك ألفاظ كثيرة جداً تقلب فيها (ال) التعريف إلى (أم). (ابن جريس).

متخـللاً بالبرك الفيضـية أو الغيلية وعلى فـترات. انفتح المجرى مـرة أخرى على مسـافة (٥٠٠) ياردة إلى أسفل على مـزارع كثيفـة على كلا الجانبين تتـبع قريتين صغيرتين يكونان مسبة على الجانب الأيسر.

اعترضتنا مجموعـة من قرى الجوابرة حينما كنت أرصد بعض الاتجاهات عند ربوة وإلى جواري شـبكة صيد الفراشـات وبندقيتي وكان رفـاقي جلوساً في الظل إلى أسفل. وقـد تقدموا ناحـية مجـموعتي وهم يحـملون إليهم الخبـز دون إلقاء التحيـة إليَّ، أو حتى لم يكونوا منتبهين لوجـودي. تجاهلتهم لفتـرة، حتى إذا ما استقر جمعهم حول الطعام، أرسلت بصـوت مرتفع بعض التعليقات البذيئة حول إدراكهم للـكرم والضيافـة. أسرعـوا بعدها نحـوي بزخم من الاعتـذارات، وقد أحضروا مـعهم سلة خبزهم ووضعـوها أمامي وقد أعيد تكـوين الحلقة من جديد حولي لمواصلة أحاديثهم في وهج الشمس. قدمت إليهم من جهتي فناجين شراب قشر البن من أحد ترامسي وكنت دائماً أحمل معي ترمساً ممتلئاً لرفاقي، وآخر غير محلّى وبلا حليـب لشخصي. وقـد عبروا عن أقـصى دهشتهم بأن الشـراب كان ساخناً. قـضيت معـهم ساعة زمـان وأدركت أنهم كانوا لطافاً. كـانوا أول الأمر خجولين، وكـانوا خائفين حينما شـاهدوا شبكة صيد الفراشـات التي لا بد وأنها بدت لهم وكأنهـا أحد أعلام الحـرب. كانوا يقدرون الـبندقية حـتى بندقية صـيد الطيور الصـغيرة هذه، وقد كـانت هي كل السلاح الذي حملتـه على أنه سلاح، غير أن الشبكة حيرتهم، وقد سبق لي أن لاحظت نفس التوقع الساخر هذا حولها بين أهل المرتفعات الذين كنت أقابلهم عرضاً خلال جولاتي.

أقبل شعيب دومة على مسافة الميل الواحد إلى أسفل ومن ناحية اليسار، وأقبل شعيب لحج بن جعار من جهة اليمين ومعهما المساحات الشاسعة للحقول التي بدأ فيها الدخن الصغير، ثم مررنا بقريتي السودة وحابل المالكيتين الصغيرتين على جانبين متقابلين وكانت قرية الملحة الكبيرة على مسافة الميل الواحد إلى أسفل وعلى الجانب الأيمن. كان بطن الوادي الرملي مشبعاً بالماء الذي يقع على عمق بوصات قليلة تحت السطح، الذي كان منقراً بثقوب مائية ضحلة، امتدَّ الوادي، من هذا الموقع وحتى العارضة نفسها، على مسافة الميل، على سهل مستوٍ، مستنقعي مع مساحات كبيرة لحشائش الحلفاء التي تحتل مساحات في حجم حقول الدخن والتي وجدنا فيها نهراً جارياً واحداً.

لم تكن المسيرة طويلة فقط مدة ثلاث ساعات مشياً على الأقدام، إلاَّ أن الطقس صار ساخناً ولزجاً، ولذلك فقد احتفلت بعودتي إلى حضارة نسبية بالخلود مباشرة وبلا مقدمات، إلى إغفاءة القيلولة داخل عشة باردة نظيفة على هيئة خلية النحل مبنية من القش. كان ذهابي للنوم عند الساعة الثالثة مساءً ولم أصح إلاَّ عند الساعة الخامسة والنصف مساءً وقد انتعشت كثيراً بهذا النوم العميق وبالتجربة غير العادية بالنوم فوق سرير. غادرنا جازان قبل ستة عشر يوماً وباستثناء قيادتي للسيارة إلى العيدابي، فقد كنت أمشي على رجلي معظم الطريق، وفوق أصعب البلاد. لم أتحقق من شدة تعبي إلاَّ بعد أن استرحت من أعمالي.

كان أمير العارضة، عبدالله البشري مجازاً في هذا الأثناء، غير أن مندوبه كاتب الدخل الحكومي جاء لزيارتي بمجرد أن صحوت من النوم ليقدم لي كرمه ويريني معالم أرضه. لا أستطيع وبالكاد أن امدحه على الترتيبات التي قام بها

لأجل أن أقوم بعملي في الحدود، أو حقيقة، لراحتي، كان قلقاً حين علم بحقيقة أنني قد سرت على قدمي كل الطريق من عند المدخال، لأعبر عن احتجاجي لفشله أن يؤمن لنا الحمير. توصلنا إلى نقاط ودودة سريعاً، ولكي يساعدني في جغرافية البلاد، فقد جمع حشداً من الخبراء المحليين على الشرفة المفرجة للبناء الشبيه بالقلعة التي تؤدي وظيفة المركز الإداري وثكنات الشرطة. تناولنا كلنا معه وجبة العشاء بعد ذلك، وناقشنا أمور العالم بعد جلسة استماع للراديو خارج عشتي. اتفق معي على موقف بني حريص، ويبدو أنه يعتقد أن كل القبائل في منطقته فقيرة خاصة قبيلة قيس التي سببت لي الكثير من المتاعب. يمضغ بنو حريص، صمغاً محلياً، هو راتنج البشام (البلسم) وهي شجرة شائعة في التلال السفحية المنخفضة وفي الأجزاء العليا من السهل. كان سوق البرتقال والدقدقة المستوردين، وقد أراني كميات للبيع بالجملة وصلت حديثاً إلى سوق العارضة، خارج استطاعتهم، ويذهب معظم هذه المواد إلى ساكني المرتفعات. يشبه الدقدقة في رأي، الجبس، بينما تم شحن أوراق البرتقال التي يسمونها سرت وهي مسطحة، في بالات.

تقع العارضة على ارتفاع (٨٥٠) قدماً فوق سطح البحر وهي قرية كبيرة ممتدة تتكون من عشش على هيئة خلية النحل ولا توجد بها مبان، ما عدا القلعة[١]، وهي بناء رباعي الزوايا تم إنشاؤه حديثاً من الصخر المحلي وتكسوه طبقة من الجبس ومزود بفتحات الرمي للدفاع. ومعظم سكانها من عناصر زنجية

(١) للمزيد من الإيضاح عن بلاد العارضة انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٩ . (ابن جريس).

الأصل، وعناصر عربية مختلفة، مثل آل سلا، إلخ. تندلق القرية فوق مساحة كبيرة على الجانب الأيسر لوادي محته الذي ينحدر من بين قمتي نجيدة وقفرة ليتصل مع زغبة أسفل القرية داخل مساحة من الحلفاء شبيهة بالبراري الشبه مستنقعية. يتجه المجرى بعد ذلك ناحية الجنوب إلى سلسلة متقطعة تسمى ثاهرة على بعد الميل الواحد ناحية الغرب ثم يتصل في نهاية الأمر مع منخفض كبير مشجر ويكسوه نبات الحلفاء، يمتد ناحية الشمال الغربي ليتصل مع وادي جازان عند الطرف الشمالي للسلاسل الخارجية (لحدج.. إلخ) التي قد ورد ذكرها. كانت مجموعة تلال أمعاصم (العاصم)، ناحية الجنوب، الواقعة في السهل معالم أرضية بارزة، وأكثر بروزاً هو طحنان وهو أيضاً أعلاها. يقع مركز الخوبة الإداري إلى اليسار منها بالقرب من منفذ وادي خلب عند التلال، غير أنه كان بعيداً جداً ومنخفضاً جداً مما جعل رؤيته صعبة. كان شدع[١] هو الوحيد البارز داخل حافة الجبل، وبه برج مراقبة على قمته، وبجواره قرية ذات حجم معقول. ارتفع بجوارنا وفي الاتجاه نفسه مرتفعات كل من هلابيهو وضبير ويفصلهما وادي كفاف الذي ينحدر من المرتفعات، بينما كان وادي الدحن هو الخط الفاصل بين ضبير، وشدع وينحدر من رأسين في التلال عبر مسيل كل من رجاف واملحي[٢]. أمكننا رؤية حدبة جحفان، إلى الخلف وإلى البعيد، ناحية الجنوب الشرقي، والتي سنقابلها مرة أخرى حين نواصل فحصنا للحدود.

---

(١) شدع: هكذا كتبها فيلبي مع أن بعض السكان المحليين ينطقونها بضم الشين أو فتحها. (شُدى) أو (تشدي). (ابن جريس).

(٢) أملحي: يطلق عليه أيضاً اسم (الملحي). (ابن جريس».

لم تكن العارضة مكاناً مثيراً ولم أكن آسفاً لمغادرتها قبل ظهر اليوم التالي، وأنا مسافر على شاحنة كانت قد أحضرت لي بريدي من جازان. وقد انتظَرتْ بتوجيهات من محمد بن مهدي لتقلنا جميعاً إلى هناك. كانت مناسبة للتغيير جميلة مقارنة بوسائل النقل العديدة التي كنا قد اعتدنا عليها، غير أن هذه الفرحة قد أزالتها حالة الطريق الذي سافرنا فوقه- وهو الطريق الرئيس من أبي عريش[1] إلى جازان. كان الجزء الأول منه جيداً كبقيته غير أن عبور حوض العارضة خلال مسافة الميل الواحد الذي يفصلنا عن سلسلة الشاهرة كان صعباً ووعراً، كانت السلسلة نفسها عبارة عن بروز لميكا شستية مع عروق كوارتزية التي غطت قطعها المتآكلة السفوح. كان الاتجاه العام للطريق، فوق بلاد تلية سفحية نموذجية مغطاة بغابات جيدة، ناحية الجنوب الغربي، داخل أو على امتداد حوض محتة العريض الذي انتشرت من حوله المزارع معظمها حقول تم حرثها لمحصول الربيع من الدخن. تسمى أرض الغابات والوادي باسم بثان ويبدو أنها تكون جزءاً من حوض أكبر يتضمن مجرى جازان إلى الشمال، والذي كان شريطه الفعلي مميزاً باستمرارية ما يحفه من شجيرات وأشجار. توقفت الشاحنة مرة أو مرتين أثناء السير الصعب هذا، غير أن السفر تحسن حينما اقترب الوادي المشترك من سلسلة متعارضة منخفضة والذي عبرناه من خلال ممر مكشوف. كان علينا أن نطوف حول هذه السلسلة مارين فوق سهل من حصى تكسوه غابة حتى طرفه الجنوبي حيث توقفنا لمراجعة الموقف. لقد غطينا خلال خمس وأربعين دقيقة مسافة لا تزيد عن عشرة أميال فقط حتى هذا الموقع، كما أن عداد قياس السرعة لم يكن يعمل.

---

(١) وللمزيد عن بلاد أبي عريش، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٠ . (ابن جريس).

يمتد أمامنا وادٍ عريض كثيف الأشجار، يقع بين مجرى جازان على مسافة نصف الميل على يميننا ووادي المشرف، وهو استمرار لكفاف، على مسافة الميل الواحد على يسارنا، ماراً ببروز منعزل لصخور جرانيتية تسمى دقم. استدار مجرى المشرف وأصبح أمامنا، ووصلنا خلال عشرين دقيقة إلى جانبه الأيمن حيث توقفنا، بينما بحث مرشدانا عن الطريق داخل الغابة والذي كانت السيول الأخيرة قد أزالته. يتصل المشرف مع وادي جازان فوق ممر فقع صقبان، التي يجري مجراها الرملي العريض بين مروج الحلفاء التي تحفها الغابة على الجانبين. يتعرج كل من الغابة وطريق السيارات صاعدين سفحاً لطيفاً لسلسلة حدج وصقبان إلى حيث ممر فتوة. تقع الوغرة أو الينابيع الحارة لمشرف، على بعد ميلين مع اتجاه أسفل الوادي على الجانب الأيمن، والتي توجهنا إليها بالتجول سيراً على الأقدام، تاركين الشاحنة لتعبر المجرى حينما يجد الرجال الطريق وأن ينتظرونا على السفح. تباعد النبعان اللذان يكونان المنتجع المائي المعدني الذي يؤمه الناس على مسافة (٣٠٠) ياردة عن بعضهما البعض فوق مساحة تكسوها نبات الحلفاء وبعض أشجار العدن الجيدة النمو والكثير من أجمات الغابة الخفيضة. يفور الماء على شكل فقاقيع، كأنها مرجل فوق مساحات من طين أسود لزج ينتشر حول المركز في بريكات مزعجة وتحوطها ترسبات الملح. كانت المياه شديدة السخونة في المركز ولم يكن معي مقياس الحرارة حينها لقياس حرارتها، والتي لا بد أن تكون أعلى كثيراً من حرارة مياه ينابيع ضمد، لأنه من المستحيل أن يضع المرء يده داخلها لأكثر من ثوانٍ معدودة. كانت المياه مالحة إلى درجة شديدة ويستخدمها الزوار فقط للغسيل والاستحمام، وليس للشرب.

عبـرنا المجرى ثم اختـرقنا الغابة لنصل إلى الطريق، حـيث جلسنا في انتظار الشاحنة التي علقت في الرمال بعد أن وجدت الطريق. لـقد استغرق انتظارنا مدة ساعتين، غـير أننا قد استفـدنا من هذا الوقت. وحينما وصلتنا الشاحنة اسـتغرق وصولنا إلى ممر فتوة خمس دقائق فـقط وهو على ارتفاع (٧٥٠) قدماً فوق سطح البحر. تكـوَّنت الغابة هنا من أشجار البـشام والطلح، وهي قزميـة وبائسة، وقد تعلَّم الطريق خلالها بأكوام من حجارة، واكتشفنا بعد مسافة أن الطريق قد تم سده من الجانب إلى الآخر بجذع شجرة كبـيرة وثلاث كتلات من الصخر بواسطة البدو على سبيل الدعابة. اقتربنا تدريجياً من مسيل يحرا، الذي ينحدر من سفوح حدج على يسـارنا، وتوقفنا لأداء صـلاة الظهر في وادي أمـعاين وهو اسـتمرار لمـسيل يحرا، بالقرب من مسطح مائي كبير في بطنه. يخترق هذا المسيل أرضاً بركانية من سلاسل وفوهات إلى الغرب من سلسلة حدج وصقبان، وكـان السفر فوقها صعباً إلى درجة بعيدة، ونحن نسـير على حافة قاعدة الحمم. كانت الفـوهتان الرئيستان الهرميتان هما القرعة الشامية والقرعة اليمانية[1] ويرتفعان حوالي (١٥٠ - ٢٠٠) قدم فوق السـهل. مررنا إلى جنوب القرعة اليـمانية فوق طريق نظيـف جزئياً في حقلها البـركاني، وعبرنا إلى الجانب الأيمن لأمعـاين الذي يدور هنا ناحية الجنوب ليتصل مع وادي أملح وهو في طريقه إلى البحر عند مضية.

واصلنا سيرنا خلال غـابة البشام الكثيفة متجهين إلى الـسهل الحقيقي، الذي بدأ لنا من هذه الأرض المرتفعة أنه مستـو ويكسوه غطاء لطيف أخضر. وصلنا بعد نصف ساعة لأولى القرى على الطريق عند حافة الحرة (أرض بركانية). كانت هذه

(١) القرعة الشامية والقرعة اليمانية تنطق أيضاً محلياً (أمقرعة الشامية وامقرعة اليمانية). (ابن جريس).

هي قرية راح[١]، قرية صغيرة من (٣٠ - ٤٠) عشة من الأعواد، تسكنها مستعمرة من آل أبو عريش وقد بدأت مدينتهم الأم ظاهرة للعيان من هنا ناحية الغرب. تقع قرية راح على ارتفاع (٤٠٠) قدم فوق مستوى البحر، وتمتد في السهل الذي يفصلها عن أبو عريش بالعديد من القرى التي تماثلها في وسط أرض واسعة لزراعة الدخن. لقد تمكنت من حصر سبع من هذه القرى باسمائها، وتعد هذه القرى مجرد ضواحٍ للمدينة العظيمة وتتجمع كلها تحت اسم عريشية[١]. برز زوج من توأم بركاني إلى البعيد ناحية الجنوب ويسمى قمتين. ويبدو أن هذين إلى جانب مخروطي القرعة والعكوتين على حافة رف تهامة الداخلي تمثل خطاً لاضطرابات بركانية حديثة. وتوحي الينابيع الساخنة في المشرف بنشاط كامن تحت السطح.

نحن الآن على مقربة من أبي عريش وأن الأهالي الزراع المحليين لديهم إحساس ضيق باحترام أشياء مثل الطرق، ولا مانع لديهم من سد الطرق أو الحفر عبرها في خدمة الزراعة. لم تكن متاعبنا محدودة ونحن نشق طريقنا عبر الحقول، وليتم تتويج كل هذا، فقد انقلبت الشاحنة فوق مسطبة ضيقة على بعد خمس دقائق من المدينة. كانت صدمة سقوطه غير المتعمد قد عطلت نظام استهلاك البنزين في الشاحنة خارج إطار العمل، وكان علينا أن ننتظر حتى تتم صيانته قبل الدخول إلى مدينة الأشرف. كانت الشمس قد غربت تماماً حينما تحركنا بالشاحنة مروراً بجوار المسجد الكبير لنمر من خلال صفوف العشش التي تشبه خلايا النحل

(١) قرية راح: تسمى أيضاً (قرية راح الحجاجة) والحجاجة اسم عشيرة من بلاد المسارحة. (ابن جريس).
(٢) عريشية: يطق عليها محلياً أيضاً اسم (قرى أمعراشية). (ابن جريس).

إلى حيث المكاتب الحكومية التي تم حجز مكان لنا أمامها لإقامة معسكرنا. كان الضغط علينا شديداً أن نقبل الضيافة داخل بناء واسع تم تنظيفه وكنسه وتلميعه لاستقبالنا. رفضت هذه المداهنات، وذلك لأنه سيكون من الواضح أن النوم أسفل النجوم أفضل في ليالي تهامة اللطيفة. وأحاط بنا حشد كبير، مئات الرجال والنساء والأطفال من داخل المدينة، وبرغم الظلام فقد استقروا حولنا يلحظون تحركاتنا باهتمام شديد. اعتذر لنا الأمير لعدم استطاعته مقابلتنا في الطريق، واعترف بأنه كان منزعجاً جداً حين علم بأنه لم يكن في استقبالنا حرس شرف ليحيينا حين قدومنا، ولا حتى فريق شرطة يراقب مرورنا من خلال العشش الكثيفة التي تشبه خلية النحل التي تكون معظم المدينة. تصافى الأمر بيننا وبينه سريعاً واحتفيت بالأمير ورفاقه، دون ذكر الحشد الكبير، بالاستماع إلى الراديو، للأخبار والموسيقي بينما كانت المطابخ تعمل بنشاط لإعداد وجبه عشائنا. جلسنا بعد ذلك نتحدث ومدة طويلة حول أبو عريش حتى الساعة الثانية صباحاً، ثم عمدت إلى فراشي لأنام بعد أن سجلت ملاحظاتي حول النجوم واعتقد أنني أول أوروبي يضع قدمه في هذه المدينة.

ترتفع أبو عريش إلى (٢٥٠) قدماً فوق سطح البحر[١]، وقد كانت لها أيامها الأفضل في الماضي، وحكماً بحقولها الواسعة المدمرة، فلا بد أنها قد غطت مساحة أكبر كثيراً مما هي عليه حين زيارتي لها. أعتقد في تقديري أن طول المدينة يصل إلى ميل واحد، في اتجاه شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي، وكذلك عرضها في أوسع مواقعه ويشبه انتشارها الطائرة الورقية. كان جانباً من

(١) لمزيد من التوضيح عن تاريخ وجغرافية أبو عريش، انظر: محمد العقيلي، **تاريخ المخلاف السليماني**، جـ١، ص ٤٤٧ وما بعدها، عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٠ .(ابن جريس).

هذه المساحة تمثله الأطلال، غير أن معظم الأطلال تقع خارجها على كل الجوانب وكلها مهجورة تماماً. يقدر عدد سكان المدينة رسمياً بحوالي (٣٠٠٠) رجل بالغ، وهذا يعادل عدداً إجمالياً يقدر بـ (١٢٠٠٠) نسمة معظمهم يقطن في عشش من أعواد الشجر، ذات شكل خلية النحل أو غيره من الأنماط. ومن حولها فناء من سور من أعواد الشجر (عريش، جمع عرايش)[١]. كان أربعة أخماس المساكن من هذا الطراز، وكانت البقية مبنية ذات واجهة من الجبس في نقش جميل جذاب. لاحظت هذه الظاهرة في صبيا أيضاً !.

كانت كل المساجد من بناء معظمه من البازلت، وقد وُضِع في بلكات خشنة دون أسمنت وفي طبقات متبادلة من لونين أحدهما شاحب والآخر داكن، بأسلوب جذاب. كانت بها ثلاث أو أربع قبب فوق الأعمدة، كان للمسجد الذي دخلنا المدينة من جانبه قبتان لهما أبعاد كبيرة، إلاَّ أنه لم يكن المسجد الرئيس. كانت الفخامة تعود للمسجد الجامع الذي تم بناؤه في القرن الحادي عشر الهجري (الذي يوافق القرن السابع عشر الميلادي) وقد بناه الإمام منصور بن عماد الدين، وهو سلف الإمام يحيى إمام اليمن. كان هنالك مسجد ثالث مهم هو مسجد الأشرف، يقف في المدخل الغربي للمدينة في وسط حقول واسعة مدمرة ولا يزال تؤدى فيه الصلوات. كانت صلابة هذا المسجد أيضاً سمة بارزة له. كانت جدرانه الخارجية ضخمة، وكان فناؤه المكشوف للسماء، ذا أبعاد أصغر، وكانت أرضيته ملمعة وهي من الجبس والأسمنت. تمتد على جانبه الشمالي أعمدة منخفضة من ثلاثة صفوف سميكة مبنية من طوب مجفف مكونة ست مسافات، وتحمل فوقها

(١) للمزيد عن طريقة بناء العشش في منطقة جازان وما حولها، انظر: غيثان بن جريس. **عسير (١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ)**، ص ٤٩ ــ ٥٢ . (ابن جريس).

(١٨) قبة تقف فوق أقواس شبه معلقة. تقع بجوار هذا المسجد قلعة الأشرف القديمة وتسمى دوجاني، مدمرة تماماً مثلها مثل كل القلاع الصغيرة التابعة للفترة الزمنية نفسها، فهي عبارة عن أكوام من حجارة. يوحي انتشار الركام والحجارة المنتشرة في هذا الموقع وفي مواقع أخرى بفكرة تدل على اتساع المدينة أيام أوجها، وقد قيل إنه كان بها ما يقدر بمئة وستة مساجد ومئة وستة آبار، والتي بقي منها (٣٠) و (٢٥) بالتوالي، بلغ عمق الآبار في المتوسط سبع عشرة قامة في أبو عريش والقرى المجاورة.

تم تدمير معظم المدينة وتم حرقها، وكانت هنالك محاولات لإعادة البناء، بدأت في بطء وتوقفت تماماً هذه الأيام. استولت الحكومة على قلعة الأشرف القديمة التي صمدت أمام الحرائق لتجعل منها مقر الرئاسة. لقد تم تطويرها لكي تستخدم بواسطة الموظفين والشرطة وكانت بناءً مهيباً بحصون زواياه. كان معظم أهل أبو عريش مزارعين، يقومون بزراعة الدخن والسمسم في الحوض الواسع الكبير الذي يقع بين وادي جازان ووادي الأملح ويبعد كل منهما حوالي ميلين من المدينة. كانت صناعة الناس الوحيدة هنا هي إنتاج الزيت، والذي توجد لإنتاجه العديد من المعاصر ذات الطراز البدائي، تديرها جمال معصوبة الأعين. يسمى الدهن الذي يستخلص من السمسم في الأسواق باسم سليط[١]. كان التجار الرئيسيون في أبو عريش من أصل حضرمي كما كان البهكليون في جازان.

كان العمدة المحلي، أو شيخ البلد، هو هادي سعيد، وهو الرجل الرئيس لعنصر المسارحة الكبير في مجموعة السكان. كان رجلاً طاعناً في السن ولطيفاً

(١) مهنة عصر السمسم لا زالت من المهن التي تمارس في المنطقة الممتدة من القنفذة شمالاً حتى جازان جنوباً. (ابن جريس).

وله اتجاهات في الكرم والضيافة جذابة جداً، جاء بشخصه بمجرد وصولنا ويصحبه إناء ضخم مملوء باللبن الرائب وحزم ضخمة من الموز. وجاء مرة أخرى عند الصباح ومعه سرب من الخدم يحملون أطباق الخبز والبيض والعسل وقحاف من اللبن الطازج واللبن الرائب، كان يبدو وكأنه يفتقر للحاسة الجغرافية تماماً، وكان جاهلاً بدرجة مدهشة للأسماء حتى أسماء القرى المجاورة، دعك عن العلامات الأرضية التي تبعد عنه. غير أنه عوّض عن كل هذا بمعلوماته الموسوعية عن تاريخ المدينة، والذي أوصى علينا بقراءة كتاب عنه بعنوان «نفح العود في تاريخ ابن سعود». الذي نشر في بداية القرن التاسع عشر (١٢١٨هـ) بواسطة الشيخ محمد ابن عبدالرحمن البهكلي، ولعله من أهل جازان[1].

تنتمي كل هذه المقاطعة في الأصل إلى بني سفيان (التابعين للحجاز) والذين تم إبعادهم بواسطة آل حرث القحطانيين، وأبعد هؤلاء بدورهم، بواسطة المسارحة، الذين لا يزالون يحتلونها، ولربما جاء هؤلاء المسارحة من الشمال من حول المدينة. لم تظهر أبو عريش للوجود إلاَّ في القرن الثالث عشر الميلادي (القرن السابع الهجري)، حينما كانت قحيفة، ذات الـ (٥٠٠) معصرة للزيت، على شواطئ وادي جازان، وحينها كانت هي عاصمة المقاطعة، حين احتلها الزيود اليمنيون الذي جعلوا من كل المناطق في تهامة بين وادي بيش في الشمال ووادي تعشر في الجنوب محافظة إدارية تحت اسم المخلاف السليماني. هاجر إلى هذا الموقع، وقد شعر بالملل، الشيخ أبو شملة من علماء قحيفة، وأسس لنفسه

(١) الصحيح أن اسم هذا الكتاب هو (نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود) من تأليف عبدالرحمن بن أحمد البهكلي، وفي آخره تكملة العلامة الشيخ الحسن بن أحمد عاكش، تحقيق محمد أحمد العقيلي من منشورات دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠٢هـ (ابن جريس).

ولاسرته «عريشة» واحدة في هذه القفار، وبدأ يستقبل التلاميذ للدراسات الدينية على مذهب الإمام الشافعي على ما يعتقد والذي لا يميل إليه الزيود. ازدادت شهرة اسمه وجاء تلاميذه مع أسرهم واستقروا من حوله، وأصبح اسم القرية التي تكونت (أبو عريش). لا يزال يعيش هنا نسل المقيم الأول وقد أوضحوا لي موقع عريشته الأولى وتبعد حوالي (٣٠٠) ياردة من مبنى الحكومة. لقد نهضت أبو عريش كما نهضت صبيا في الأزمان الحديثة، لتكون مدينة عظيمة حول نواة عريشة العالم، وسقط كلاهما في هوة النسيان تحت ظلال الشريعة.

ظلت أبو عريش ومقاطعتها تحت سيطرة الزيود، دون حوادث أو تميز، لعدة قرون، ويعزى أهميتها إلى أحد حكام تلك الممالك في القرن السابع عشر، كمركز محافظة، ثم تجميلها بالمباني الضخمة، الدينية منها والعسكرية. يبدو أن تأثير الزيود قد انحسر خلال الجزء الأخير من القرن الثامن عشر وذلك حينما تحدى الأشراف الزيود - الذين استقروا هنا غير أنهم أصلاً قدموا من اليمن - وانتزعوا منهم الحكم. كان على رأس ثورة الأشراف الناجحة الشريف محمد بن أحمد آل خيرات، الذي نصب نفسه أميراً على المخلاف السليماني وعاصمته أبو عريش. وخلفه ابنه حمود[١] الذي حكم في نهاية القرن وحارب السعوديين في أولى أيام القرن التاسع عشر تحت القيادة الذكية لسعود العظيم[٢]. خلف حمود عمه الشريف علي بن حيدر، الذي جاء بعده ابنه حسين، وجاء بعد حسين ابنه حسن

(١) حمود بن محمد بن أحمد الشريف من أسرة آل خيرات، كان تحت لواء آل سعود في دورها الأول ثم ما لبث أن انقلب عليهم، وهو المعني من كتاب عبدالرحمن البهكلي المسمى: (نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود). للمزيد انظر: محمد العقيلي. **تاريخ المخلاف السليماني**، جـ١، ص ٤٤٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) يقصد بـ (سعود العظيم) أي الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود. (ابن جريس).

الذي انتقل منه الحكم إلى خاله الأول حسن بن محمد بن علي. احتفى معظم هؤلاء الحكام بذكرى فترة حكمهم بإضافة مبان ذات مغزى ديني أو دنيوي لعاصمتهم النامية.

جرى كل شيء على أحسن حال بالنسبة للبلاد وللحكم، حتى عهد حسن ابن حسين حينما وقع التمرد داخل البيت الأميري ورفع حسن بن محمد السلاح في وجه خاله. تدمرت خلال القتال إحدى القباب الثلاث التي تميز المسجد الزيدي الكبير، وسقط الأمير الحاكم في المعركة. اعتلى المغتصب العرش في ١٨٦٩م ليستمتع به لوقت قصير. كانت قناة السويس قد تم افتتاحها لحركة النقل، ومن خلالها جاء الأتراك في عام ١٨٧٢م لاحتلال عسير واليمن. استمر حكمهم حتى الحرب العظمى حينما سيطر الأدارسة بخروج الأتراك حتى خرجوا هم أنفسهم بدورهم بواسطة ابن سعود. انحدر في عام ١٨٧٠م محمد بن عايض، حاكم مرتفعات عسير من التلال للهجوم على المغتصب حسن بن محمد، وقد تدمر جزء كبير من العاصمة خلال العمليات، إلاَّ أن حسن ثبت في موقعه وفشل الهجوم. استولى الأتراك على المدينة من الأشراف ويبدو أن الأتراك قد اختفوا بين طيات النسيان. ولم تقابلني أية آثار لهم بالتأكيد[1].

(١) لمزيد من الإيضاح عن تاريخ أبي عريش خلال العصر الحديث، انظر: العقيلي، المرجع السابق، حـ١، ص ٤٤٧ وما بعدها، محمد بن عبدالله آل زلفه. **تطور الأوضاع السياسية في جنوب غرب الجزيرة العربية: إمارة أبي عريش وعلاقتها بالدولة العثمانية ١٢٥٤ ـ ١٢٦٥هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٤٩ (دراسة وثائقية)** (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٧هـ) ص ٢٩ وما بعدها، علي بن حسن علي الصميلي. **العلاقة بين أمراء أبي عريش وأمراء عسير في القرن الثالث عشر الهجري (١٢١٧ ـ ١٢٦٧هـ / ١٨٠٢ ـ ١٨٤٧م)** (الناشر ومكانه غير معروفين، ١٤١٩هـ) ص ٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

هكذا كانت القصة الحزينة لـ (أبو عريش). غادرناها ظهر العاشر من يناير وتركناها خلفنا، منطلقين من مسجد الأشرف فوق حزام واسع لصحراء قاحلة تمتد شمالاً وجنوباً بين الواديين. تعطلت السيارة بسرعة وتأخرنا مدة ربع الساعة. ثم مررنا بعشش القويعية على اليمين وتوقفنا قليلاً لنفحص البئر الجميلة، بئر مروخة التي تقع بجوار الطريق، وعمقها سبع عشرة قامة. أحاط بفوهة البئر إطار من بلكات بازلتية لحمايتها من التلوث. كان أعلى البئر مربع الشكل، مبنياً من طوب نحيل صغير، بينما أسفل الفوهة كان الصهريج مستديراً، وكانت جدرانه مغطاة بالأسمنت. تعطلنا مرة أخرى بسبب خلل في السيارة مدة نصف الساعة ونحن نقترب من قرية مخاضرة[1] -يسمى بحرة أيضاً-، في حضن حقولها في وسط غابة على جانبي أحد فروع مجرى جازان. كانت البلاد على الجانب القريب عارية، مسطحة، ورملية، قفر به شجيرات خفيضة قليلة جرى من خلالها الطريق.

كنا نقترب من قرية الخشابية الكبيرة وبعد مرورنا بقرية عسيلة الصغيرة على يسارنا، حينما نفد البنزين وتعطل السير. لا يمكننا مواصلة السفر بلا بنزين، وكان علينا إرسال رسول إلى القرية لاستئجار حمار نصل به إلى جازان. ولكي أعوض سهري لوقت متأخر من الليل في (أبو عريش)، فقد عمدت إلى إغفاءة في الصحراء العارية صحوت منها عند الساعة الثالثة والنصف بوصول قافلة من الحمير. لم تكن هنالك حدود لكرم ساكني قرى هذا السهل. استجابوا بعفوية

(١) مخاضرة: ليس اسم قرية، وإنما هي صفة تطلق على مجموعة من الناس يخرجون من قراهم الأساسية إلى قرى أخرى بها بعض المحاصيل الزراعية فيعملون مع أصحابها مقابل الحصول على بعض الأجور من ناتج المحاصيل. (ابن جريس).

وقد أخافتهم فكرة قضائنا الليلة في الصحراء، وبمجرد أن علم سكان الخشابية بأحوالنا من رسولنا، حتى قاموا بجمع حميرهم من المراعي وأرسلوها لنا لإحضارنا إلى القرية لقضاء الليلة. قررت ألاَّ أغادر السيارة، مع شكري لدعوتهم هذه، وذهبت الحمير لتعود لنا بالماء والطعام. تمكنا الآن من قضاء الليلة، وتناولنا غداءً ممتازاً من سخاء القرية، متضمناً شاة وخبز الدخن. هبَّ نسيم جنوبي غربي وحمل الرمال بصورة غير مريحة في وقت متأخر من الظهر، غير أن الليلة كانت لا تزال باردة وهادئة، وكان الإحساس مثيراً أن ينام المرء مرة ثانية فوق رمال حقيقية. قام على العناية بنا وفد قروي كبير، ومعهم المؤن واقترحوا بكل الجدية أن تدفع الشاحنة بالأيدي إلى حيث الحماية لها داخل عششهم، كانوا جمهوراً لطيفاً، جذاباً، ارتدى الكبار منهم الطربوش الناعم النسيج الذي جلب من مكة ومدن تهامة فوق رؤوس مقصوصة الشعر، أما الشباب من الرجال فقد كانوا كاشفي الرؤوس، وبدت شعورهم المجعدة كثيفة الدهن[1].

كنت نائماً حينما وصلت إمدادات البنزين على ظهور الحمير عند الساعة الرابعة صباحاً. كان هذا عرضاً مثيراً للدهشة للكفاءة من كل الأبعاد. لم تكن بداية رحلتنا مبكرة وذلك لأن الشاحنة تحتاج إلى صيانات أخرى. قمنا بإزالة كل الشمعات وغمرناها في البنزين ثم أشعلناها للتسخين، تناولنا خلال هذا الوقت طعام الإفطار تحت ستار من نسور، كانت تنتظر انصرافنا لتلتقط العظام العارية المتبقية من وجبة مساء الأمس. واصلنا سفرنا خلال سحابة من دخان أسود

(١) إن الحياة الاجتماعية، وبخاصة العادات والتقاليد، ونمط العمران، واللباس والزينة، والطعام والشراب في منطقة جازان جديرة بالدراسة العلمية الأكاديمية الجادة. ونحن نعوّل على المؤرخين والمتخصصين في العلوم الاجتماعية أن ينجزوا مثل هذه الدراسات العلمية القيمة. (ابن جريس).

ووصلنا القرية خلال خمس دقائق، لنتقدم بالشكر لمضيفينا ولنوزع عليهم بسخاء مقابل كل ما نلناه منهم.

نستطيع من هذا الموقع رؤية القلعة[١] على رأس تل جازان. بينما حصرت وسجلت ما يصل عدده. إلى الدرزن (الدستة) من القرى كلها داخل نصف قطر طوله ميلين لهذه المستوطنة الرئيسة. كانت كلها تنتمي إلى قبيلة المسارحة[٢] إلاَّ أنه يوجد فيها عنصر أفريقي يعد داخل الكثافة السكانية. امتدت مساحات شاسعة للدخن من حولنا فيما يلي الحاجز الرملي الذي كنا قد تركناه من ورائنا، ولم يكن هنالك خيار آخر للشاحنة غير أن تشق طريقها داخل الحقول والنباتات الواقفة التي حجبت الطريق تماماً.

لا يمكن مقاومة المصاطب من الأمام، غير أن السائق مدرك للحيلة التي تجعله يدخل إلى المصاطب على نحو مائل دون تخفيف السرعة للدرجة التي تعرضنا خلالها لأكثر من مرة لخطر الانقلاب. أدت إحدى المصاطب إلى تعطلنا، غير أننا تمكنا من مواصلة السير عبرها، وسرعان ما وصلنا إلى قرية وسيلي وقد أحاطت بها توابع عديدة في حوض حفرته السيول، ويمسك في بعض أجزائه ببرك مملوءة بالمياه. كنا الآن على ارتفاع (١٠٠) قدم فوق سطح البحر. وكانت المحاصيل وافرة كعادتها، متضمنة نسبة معقولة من الدخن الصغير. كان مسجد وسيلي جميلاً يقع بين عشش من القش وكانت نسبة سكانها من الأطفال هائلة وقد

---

(١) هذه القلعة معروفة عند أهل جازان بـ (قلعة الدوسرية)، نسبة إلى قائد جيش جاء إلى جازان عام (١٣٧٥هـ) وسمى (محمد الدسوقي الدوسري). (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن بلاد المسارحة، أو أحد المسارحة، انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٦٩ . (ابن جريس).

خرجوا ليشاهدونا ونحن نعبر، ويحيوننا دون انتباه بأن سيارتنا -التي تنطلق بصورة جنونية لتحاشي المطبات- هي مصدر خطر حقيقي. كان كل الصبية عراة، وارتدت الفتيات -وهن في نفس الكثافة العددية- خرقاً حول خصورهن. كانت طيور بلشون البقر بوفرة داخل المحاصيل وقد أثارها ضجيج مرورنا فطارت لفترة في سرب ضخم.

خرجنا بعد مسافة ميل واحد فيما يلي هذه المجموعة من المناطق المأهولة من منطقة الزراعة، ودخلنا صحراء ذات شجيرات خفيفة، متموجة الرمال، تتخللها أشجار الأراك إلى جانب المتاريس ونبات العلقاء، وهو عشب فاقع الخضرة وأزهاره صغيرة صفراء. وصلنا فيما يلي هذه إلى قرية عجيبية الصغيرة وبئرها التي يبلغ عمقها ست قامات ذي الصهريج الدائري المبني بالأسمنت وقد اشتركت في زراعة أرض متقطعة مع قرية بخشة على بعد. كانت القفار التي تعوي هي التالية، وقد تكسرت بلا نظام بالعديد من التلال الرملية التي تكسو قمتها الأجمات ونبات السواد الداكن الخضرة في مجموعات كبيرة في الأرض المنخفضة. كانت قيادة السيارة هنا مرعبة ونحن نمضي إلى الأمام وندور لنتحاشى كتل النبات وقد أطلق راديتور السيارة الذي يغلي سحابة من البخار. توقفنا مرة لتجديد مياه المكينة، وتوقفنا مرة أخرى، لانغرازنا في الرمل. لا نستطيع زحزحة السيارة، فذهبت سيراً على الأقدام ناحية مبانٍ ليست بالبعيدة على أمل أن أدبر نجدة بالحمير توصلنا إلى جازان.

وصلت إلى المكينة وقد اكتسبت اسمها هذا من مضخة معطلة وبيت المكينة تابع للنظام التركي بجوار البئر الذي غمرته الرمال. كانت الفكرة أصلاً هي أن يضخ الماء من هنا إلى جازان لتوفير العمل الضخم الذي يتطلبه نقل الماء بواسطة الجمال والحمير، إلاَّ أن المشروع فشل لسبب ما، أكثره احتمالاً أن المضخة قد

أنضحت البئـر حتى جفّ، وتم ترك المكينة لتواجه مصيـرها. رفعنا أعيننا، ونحن جالسين نتوقع أن نسـير على الأقدام إلى جازان. ورأينا ثلاث سيـارات قادمة من ذلك الاتجاه اتضح أنها تتبع مجـموعة عبدالله بن الوزير[١] حاكم الحديدة وتهامة اليمن، الذي كما كنت قد سمعت في العارضة وأبو عريش أنه سيقوم بزيارة نظيره في جازان ليقنع نفسه وحكومته بأن السلطات السعودية تنفذ اتفاقية ١٩٣٤م متوقعاً أن كل القلاع التي تقع داخل مسـافة (٥) كيلومترات من الحدود على الجـانبيين قد تم نزع السلاح منها. رأيته آخر مرة في الطائف في صيف عام ١٩٣٤م حينما كان ممثلاً لحكومة اليـمن لمحادثات السلام التي نتجت عن حرب الأسابيـع الستة. كان على علم -بلا شك- بنشاطاتي فيمـا يخص رحلتي لكل من شبوة ونجران ومسح الحدود. كان لدينا الكثير لنناقشه خلال الأيام المقبلة في جازان.

تبادلنا في هذه الأثناء التحايا الودية وصرح لي بأنني قد كبرت كثيراً منذ آخر مرة رآني فـيها. ربما عـزاءً منه بلا وعي لنوعيـة الحياة التي كنت أعـيشهـا خلال الثمـاني أشهر الماضـية. يرفرف العلم اليـمني الأحمر فوق سـيارته الجمـيلة فورد سيدان ذات الثمـانية قطع سلندر وعلى غطائها السيف وخمس نجـوم، كما عرض عليَّ في كرم شديد أن استخدم إحدى الشـاحنات لنقل شخصي وفرقتي والعفش، كلنا، إلى داخل جازان. قبلت العرض، وتركته ليقوم بحـملته التفتيشية، وانطلقنا تجاه الوطن.

---

(١) قاد تمرداً عام(١٩٤٨م)، بعد خدمة سنوات طويلة واحترام للإمـام يحيى، ضد سيده الذي اغتيل بصورة بشعة. نصب عبدالله نفسه ملكاً على اليمن، غير أنه لم يجد إلاَّ القليل من الدعم من شعبه. سحق ولي العهد سيف الإسلام أحـمد المؤامرة وألقى القبض على عبدالله بن الوزير ومعـاونيه الرئيسين وتم شنقهم جميعاً. (المؤلف).

لاحظت جمال جازان وهي قادمة متجهة إلى الآبار، أثناء سيري، عابرة الدلتا الملحية الواسعة، جاهدة أنفسها خلال السراب الذي انعكست صورتها مقلوبة فيه. لم يمض كثير وقت حتى مررنا بها لندخل مرة أخرى البوابات الكريمة لمنطقة ابن ماضي[١]. صرفت معظم أوقات اليوم، باستثناء تناول غداء متأخر في مقر سكني القديم وعشاء مع الأمير في المساء، في قراءة بريد الوطن الضخم. كان بريداً متأخراً، أرسل لي من جدة في الثالث من سبتمبر، لأستلمه في نجران، وأعيد إرساله من هناك ليعاد لي مرة أخرى هنا، بواسطة السيارة التي سأستقلها في وقت لاحق للسفر إلى جدة ومكة. انكسر المحور الخلفي للسيارة -للأسف- وكانت قليلة المنفعة لي، غير أن هذا كان في هذه اللحظة، من هموم المستقبل. يرجع تاريخ بريدي إلى شهري يوليو وأغسطس المنصرمين. ثمانون رسالة من أفراد أسرتي فقط، غير أنني حينما فرغت من قراءتها أصبحت على علم بأخبار الأسرة حتى منتصف نوفمبر.

استغرقت هذه الرحلة من المرتفعات إلى جازان (٢٣) يوماً، ورحال الزمن تمضي سريعاً، إذ كان عليَّ أن أعود إلى مكة للحج. بقي لدي الكثير لأفعله قبل أن أبدأ رحلة العودة، ولا أستطيع إضاعة الوقت في جازان. كان لدى ابن ماضي توجيهات من الرياض بلا شك لتحاشي أي تأخير في إكمال عملي، وهو ليس بالرجل الذي يترك الأعشاب تنمو تحت قدميه. تعرض في ذلك المساء الذي وصلت فيه إلى موضوع مغادرتي، وأخبرته بأنني مستعد للبداية مرة أخرى بمجرد أن يعد لي الترتيبات الضرورية. كنت في هذه الأثناء مشغولاً بالرسائل وإعداد كل شيء للبريد الصادر.

---

(١) لمنطقة ابن ماضي: - يقصد بذلك (ابن ماضي) أمير منطقة جازان آنذاك. (ابن جريس).

أوضحت رغبتي في رؤية عبدالله بن الوزير الذي زرته ثلاث مرات لحديث طويل خلال الثلاثة أيام لإقامتي المؤقتة في جازان. كان أسلوب تعامله ودوداً وخفيفاً كالنسيم، يفكر ويتكلم بما يشبه القفز، ولم يكن لديه الرغبة لمناقشة أي موضوع ليصل لنهاية له. لا يزال يؤكد بأن شبوة جزء من اليمن، ومعلناً أن الأطلال التي كنت قد رأيتها عند بئر حمد كانت بقايا مدينة أسسها يمني اسمه أحمد بن حسن بن قاسم في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي). كانت المتاعب الحقيقية أنه ليس للأهالي في شبوة أو المناطق المحيطة بها، أية رغبة أن يكونوا تحت حكم الزيود. كان بالطبع مهتماً جداً بنتائج رحلتي، إلاَّ أنه تشكك في إدعائي بأنني زرت مأرب. لم أدخل بالطبع القرية -سيكون ذلك من المستحيل تحت الظروف السائدة- غير أنني قد رأيتها وبوضوح من إحدى الربوات المجاورة وسجلت كل التفاصيل بدقة كافية لوضعها في خريطة أفضل من المتوافرة الآن[1].

كان هو نفسه في مأرب عام ١٩٣١م للقضاء على تمرد محلي، وهو على علم بالبلاد. كان على عبدالله بن الوزير أن يظل مدة أطول في جازان إلاَّ أنه دعاني بحرارة لزيارة بلاده. أجبته بأنني يسرني ذلك إذا جاءتني الدعوة من الإمام، غير أن الدعوة لم تتحقق مطلقاً كما لم تحن الفرصة لمثل هذه الزيارة إطلاقاً. كنت مسروراً بعد عام أو عامين، أن أرسل نسخاً من كتابي إلى عبدالله وسيده الملك، الخاص بجولاتي على الأطراف الشرقية لبلادهم إلى جانب الخريطة التي نتجت عنها، وقد شكرني على هذا الأمير اليمني سيف الإسلام حسين بن يحيى، الذي حضر مؤتمر فلسطين في لندن في ربيع عام ١٩٣٩م ممثلاً لوالده.

---

(١) عالج فيلبي هذه الجوانب بشكل جيد في كتابه: **بنات سبأ**:- **رحلة في جنوب الجزيرة العربية**. (الرياض: مطبوعات العبيكان، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) ص ٢٨٥ وما بعدها. (ابن جريس).

كان الاستحمام في البحر في جازان ممتعاً كعهدي به، غير أن المد كان منخفضاً جداً في الصباح الباكر وما بعد الظهيرة، وهما الوقتان الملائمان للاستحمام. أخبرني ابن ماضي عند وصولي أن اثنين من الجيولوجيين التابعين لشركة النفط العراقية قد قضيا الليلة الماضية هنا، وغادرا في الصباح عن طريق المركب الميكني الحكومي إلى جزر فرسان[1]. توقفت الموجة المتوسطة في الراديو من قبل يوم أو يومين وقد سلمت الجهاز إلى رجل اللاسلكي في جازان، عبدالله قاضي، على أمل أن يقوم بعمل شيء تجاهه. لم يستطع إصلاحه. وقد أستطيع الحصول على إشارات التوقيت وعلى الأخبار باستخدام الموجة الطويلة، على الرغم من أن هذه ليست مقنعة، وحتى هذه توقفت بعد قليل. أصبحت بكل الأبعاد بلا راديو، وليست لدي إشارات توقيت زمنية مع أهميتها لي، ودام ذلك طيلة الشهر الأخير من جولاتي.

كانت معجزة أن يظل جهاز الراديو يخدمني طيلة الثمانية أشهر التي غطاها أصعب ترحال دون أي مراجعة له غير تلك التي قام بها اليهودي في نجران، والذي كان علاجه لمزواتي قد أمكنني أن استفيد من الراديو لأكثر من شهر كامل. لم يجد الراديو أي عناية إطلاقاً حتى ذهبت الموجة المتوسطة.

لاحظت ثلاثة من شيوخ فيفاء الثانويين وهم جلوس على الحصير، وذلك أثناء حضوري مجلس الحاكم الصباحي لهذا اليوم. لقد أمضوا الليلة في السجن

(١) للمزيد عن جزر فرسان، انظر: إبراهيم مفتاح. **فرسان بين الجيولوجيا والتاريخ**، ص ٥٣ وما بعدها. (ابن جريس).

المحلي، وقد أطلق سراحهم، شريطة حضورهم في الوقت المحدد لمقابلة أمير فيفاء وذلك فيما يتعلق بجريمة القتل التي تورطت فيها بعض أقسام قبائلهم. كان عليهم أن يدفعوا الدية ومقدارها (٥٠٠) ريالٍ وغرامة إضافية (نكال)[١] بنفس المبلغ إذا لم يتمكنوا من تسديد الدية خلال الموعد المحدد لذلك.

تناولت طعام الغداء مع مدير الشرطة ووجدت عنده موظف الدخل الحكومي عبدالعزيز جميل، وبذلك تمكنت من مناقشة وترتيب احتياجاتي المالية. لقد نفدت النقود بالفعل خلال هذه الرحلة الأخيرة، في اليوم الذي يسبق وصولنا إلى العارضة. وقد اضطررنا إلى إسقاط اللحم من وجبة العشاء لتلك الليلة. أعدّ لنا عبدالعزيز جميل في اليوم الثالث (١٤ يناير) وجبة غداء لوداعنا وقد شارك فيها شقيق الأمير، مشاري بن ماضي، الذي ودعنا على جانب الرصيف لبداية المرحلة التالية من رحلتنا إلى الجنوب هذه المرة وعلى ظهر الشاحنة، والتي فحصها بعناية بعد مغامراتها الأخيرة. تجمع حشد كبير للمناسبة، وكان لدى معظمهم العديد من الأسباب للسفر إلى المضايا أو غيرها في الجنوب كان علينا أن نتجاهل توسلاتهم لنقله الطريق، كانت الشاحنة بالكاد تكفي لنقلنا وعفشنا.

استدرنا حول الجانب الداخلي للعرن أثناء قيادتنا عبر البلدة خارجين منها عن طريق عرن متلع كنا نسير في سرعة فوق الدلتا الطينية المسطحة المتينة، أسفل قلعة

---

(١) النكال: هو نوع من العقوبة المادية تفرضها القبيلة على أفرادها الذين يرتكبون بعض الجرائم أو الأخطاء المعينة. وهذه العادة تمارس منذ القدم، ومعظم القبائل في الجزيرة العربية تمارسها، وتدون بينها بعض العهود توضح طريقة الاتفاق على تلك المواثيق، ثم العقوبات التي تطبق على من يتجاوز ما تم الاتفاق عليه. وللمزيد من الاطلاع على هذا النوع من العقوبات وتلك العهود، انظر العديد من النماذج في كتابنا: - **صفحات من تاريخ عسير** (الجزءان الأول والثاني) (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) (ابن جريس).

العشيما فوق عرن تل جازان على ارتفاع (١٠٠) قدم من فوقنا. كنا نبحث في الطريق عن البديل لمصرف عميق توجد به السدود على الجانبين، أقامها الأدارسة منفذاً يحصر البحر بعيداً عن جازان نفسها حينما تغمر مسطح السبخه الماء بالمد العالي في مواسم السنة المختلفة.

انطلقنا بنشاط فيما يلي هذا المانع فوق أرض منخفضة رملية من كثبان تكسوها شجيرات خفيضة، تمتد إلى مسافة إلى الداخل من ساحل البحر، الذي كان يحفه شريط واسع من مستنقع المانجروف. أصبح المنظر كئيباً ونحن نتقدم بسرعة (٢٠) ميلاً في الساعة، وتخلى ما كان يوجد من غطاء نباتي من الموقع لأمواج الرمال تتدحرج إلى البعيد ناحية البحر. تسمى هذه الأرض الرملية مغائر وقد تكسرت حافاتها المواجهة لمستنقعات المانجروف (شورة) بالعديد من التشرخات لأسطح طينية عارية تكون أحياناً مبتلة جداً. لم تواجهنا مشاكل فوق هذه الرمال، إلاَّ في موقع واحد، وبعد ساعة من مغادرتنا لجازان وصلنا إلى قرية المضايا الكبيرة الشبيهة بخلية النحل[1]، والتي يوجد بها زوج من الأبنية الحجرية، وقلعة متوسطة الحجم، وسمات أخرى، لم نتوقف لفحصها في هذه المناسبة وذلك لأننا كنا نرغب في الوصول إلى منطقة الحدود قبل غروب الشمس. جذبت وقفتنا القصيرة هناك لتجديد مياه الشاحنة حشداً ضخماً من القرويين، خاصة الأطفال، والتفوا من حولنا، ووجدنا صعوبة شديدة في التخلص منهم حينما رغبنا في مواصلة الرحلة. جرى حشد الأطفال وهم يقفزون من جانب إلى آخر من ورائنا ونحن

(١) للمزيد عن قرية المضايا وما حولها من البلدان، انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص١٦٨، ١٧٠ (ابن جريس).

نطوف القرية فوق حفر خطرة، وسرعان ما تركناهم كلهم من ورائنا وانطلقنا فوق الصحراء الرملية التي تطعم هنا وهناك بأشجار الأراك واقفة فوق قمم الكثبان.

نقف الآن في منطقة الدلتا في مصرف أملح الذي انتشر على مراحل فوق الرمال وعبر مسارنا مع بروزات كالأصابع عريضة ومسطحة من الطين ممتدة إلى البحر. كان بعضها متيناً لقيادة السيارة من فوقه وذلك لوجود نبات خزامى البحر فوق سطحها، غير أن العارية منها كانت مبتلة وخطرة. كان أول متاعبنا هو توحلنا في مجاري آثار حركة سيارات سابقة غمرتها المياه. اقتربنا من الساحل للتخلص من هذه الموانع وكانت التلال الرملية على يسارنا فوق هضبة عالية وكانت مستنقعات المانجروف على يميننا. عبرنا سبخة وادي حمير، كما قيل لي إن هذا هو اسمه، فيه بعض الصعوبة ولكن بدون حوادث. غربت الشمس ونحن لا نزال نحاول السير ولا نزال بعيدين من محطة الوصول، وقد قررنا العمل لرخصة الحاجة والضرورة، بأن نعسكر لقضاء الليلة فوق مساحة لطيفة للكثبان الرملية، وقد جمعنا الكثير من أعواد الأشجار الخفيضة لإشعال النار، وجمعنا كذلك أجمل الرمل للنوم عليه. كنا نرى نيران معسكرات صيادي السمك طيلة الليل على حافة المانجروف، وكان مصدر قلقي الوحيد هو الراديو الذي فيما يبدو، قد رفض أن يعمل مطلقاً. استرخيت مع ألغاز الكلمات المتقاطعة في جريدة التايمز ونمت عند الساعة الحادية عشرة ليلاً.

وصل إلى معسكرنا أثناء المساء أحد شيوخ قيس واسمه حسن بن سهل - من بني مروان - وقد أحضر معه أحد الأشخاص ويدَّعي أنه ملم بالكثير من المعلومات حول البلاد. لم يكن لدينا مرشدون في جازان وكان علينا أن نتحصل عليهم في الطريق، غير أنني قمت باستيعاب القادم الجديد، تحوطاً للحوادث، وقد

أفاد كثيراً بتعرفه بسرعة على الوادي الذي عبرنا قبل قليل بأنه الجزء الأسفل من وادي تعشر. خرجنا بذلك من حدود المخلاف السليماني القديم. تجولت في الصباح بحثاً عن الطيور داخل وعلى امتداد المانجروف واستغربت أن أحد السطوح الطموية وقد تنقرت بآثار الغزلان. تذهب الغزلان في كل بلاد تهامة هذه وشمالاً حتى جدة إلى البحر للشرب. ربما ذهبت للملح أكثر منه للماء حيث لا توجد مواقع لعق محلية ترجع إليها عند الحاجة. لم يكن لدينا من الماء ما يكفي لطبخ العشاء ولذلك اكتفينا بشرب الشاي والقهوة وتناول الخبز والموز. تناولنا غداءنا في وقت متأخر في جازان ولم نكن في حاجة إلى وجبة ثقيلة. كان هنالك ندى خفيف أثناء الليل، يكفي لربط حبات الرمل. كانت هنالك كتل من الأعواد فوق السطح الطيني في صدر الشاطئ وبعض المواد الطافية التي جلبها المد، والذي تعلم أعلى مستوى له بشريط مستقيم من حطب طاف.

كان مستنقع المانجروف الذي كنت أخوض فيه إلى الركبة، مملوءاً بطيور الكروان، والزقزاق الكنتشي وطيور سواحل أخرى، وطائر هرار يبحث عن فريسته. كانت طيور الحدأة والغداف متوافرة بأعداد كبيرة تحلق فوق الأماكن التي باشر فيها الصيادون تقطيع حصيلة صيدهم من الأسماك، مخلفين وراءهم الفضلات وبقايا أخرى. بنى الصيادون لأنفسهم عششاً مؤقتة أثناء قيامهم بهذه العملية من أعواد من أشجار المانجروف ومسقوفة بالأعشاب البحرية. تكون من حولهم عادة حلقة من الأجزاء المرفوضة من الحبار طويل الذيل وغيره من الأسماك. وجدت حين عودتي إلى المعسكر أن كلاً من سعد وفرج لم يحاولا تنظيف البنادق، والتي لم يهتم بها أحد لعدة أيام، وتأخرنا تبعاً لذلك حتى يتم هذا. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف حينما ركب الجميع الشاحنة

وتحركت بنا فوق السبخة على الشريط الساحلي، والتي كانت جيدة للسير، برغم أنها كانت رخوة في بعض الأجزاء. كان مستنقع المانجروف على يميننا عبارة عن غابة من أغصان جافة ذات اتجاهات غريبة بارزة من داخل الماء، بينما يمكن رؤية بعض قرى صيادي السمك إلى البعيد على اليسار.

ابتعدنا تدريجياً عن ساحل البحر وقد حجبه عنا شريط من تلال رملية. واصلنا السير مسافة بلا حوادث حتى بدأت، فجأة وبدون مقدمات، الشاحنة وكأنها قد انفلقت إلى جزأين. اتضح أن الأمر أقل خطورة مما اعتقدنا، ذلك لأن الجزء الخلفي من الشاحنة الذي كان مربوطاً بالحبال، قد انفصل عن الجسم العام وسقط في الطريق. كان علينا جمع الأجزاء المختلفة وشحنها فوق الجسم الرئيس للشاحنة وواصلنا رحلتنا وقد فقدنا فقط عشر دقائق. واصلنا قيادة الشاحنة فوق المسطح الطيني إلى أن وصلنا إلى فم وادٍ ينحدر من كثبان رملية مرتفعة شيئاً ما وتكسوها نباتات الأراك، والقضب والعراد.

لا أحد يعرف اسم هذا الوادي وقد أصابني الاشمئزاز من هذه الجولات التي لا يصحبني فيها مرشد مما دفعني للإعلان بأنني سوف أتوقف هنا إلى أن نعرف اسم الوادي. لم يكن هناك أحد على مد البصر، وبعد ساعة تقريباً جاء رجل وهو شبه عارٍ ويمشي مجهداً ويحمل رمحاً ومحفظة من الجلد. كان في اتجاهه من وادي ضمد إلى ميدي وأخبرنا بأن هذا المجرى ليس بالوادي وإنما هو مجرد منخفض بين الرمال. يسمى هذا المنخفض وفتحات مماثلة إلى الأمام في الحاجز الرملي خبت المغشوش من مجموعة من الثقوب المائية التي سنصلها إذا تقدمنا قليلاً. كافأت الرجل دون شعور مني بمبلغ أدهشه وواصلنا سيرنا لنصل خلال خمس دقائق إلى الثقوب المائية التي تجمَّع حولها عدد كبير من الرعاة يسقون قطعانهم. كانوا من

قرية المُوَسمّ وهي محطة وصولنا، والتي كانت على مرمى حجر إلى الخلف في الرمال.

كان لدينا الكثير من الوقت صرفنا بعضه مع هؤلاء الناس الذين كشفوا لنا عن بعض تعقيدات المسميات المحلية. يطلق اسم الموسم على المحافظة، ويطلق مراراً على قريتها الرئيسة، والتي يكون اسمها الحقيقي هو ظاهر الجمل[١]. لم يكن خبت المغشوش بأكثر من الاسم الذي يطلق على فم وادي حرض الذي ينحدر من التل وقرية بالاسم نفسه على الجانب اليمني من الحدود، بينما يطلق على الثقوب المائية أمعتم (معتم). علمنا أيضاً أن مختلف الأودية التي عبرنا بها إلى هذا الموقع، كانت تسمى الأملح عند المضايا، وخلب الذي وصلنا إليه، وأخيراً تعشر، الذي قضينا فيه الليلة. ويبدو كل ساحل تهامة في هذه المنطقة وكأنه دلتا متصلة. تكون مياه هذا المكان مالحة ويقوم الرعاة بتعبئتها في قرب الجلود أو أحواض جلدية ويستخدم القرع وقد تم تقطيعه إلى نصفين كأكواب واسعة. ذكروا أنه توجد مياه أفضل على الجانب الجنوبي من الموسم، وواصلنا تقدمنا بعد أن قمت برصد كل هذه المعلومات، فوق أرض واسعة لحقول ذات حواجز فوق رمال متدحرجة، ووصلنا القرية خلال عشر دقائق.

تختلف قرية الموسم (أو ظاهر الجمل) عن غيرها من قرى تهامة التي رأيناها في أن مساكنها دائرية ومبنية من الطين إلى ارتفاع ستة أقدام، ومسقوفة بالوتل على هيئة خلية النحل. كانت تبدو متينة برغم أن العمل كان بدائياً. ينتمي سكان

(١) لمزيد من الإيضاح عن الموسم، الذي يقع في وادي حرض على الحدود بين السعودية واليمن، انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص١٦٧ . (ابن جريس).

القرية والمقاطعة إلى قبيلة بني مروان ومن أربعة أقسام منها هي: عريبي وعواجي وازيبي وقيس. يرأس نقطة الشرطة إبراهيم بن حمد النفيسى، وهو خال لمدير جازان ومن مواليد حائل، دمث الأخلاق يتحدث بكثرة وميال للمساعدة ويسر. اتضح لي أنه لن يمكنني أن أتقدم في عملي إن لم أحصل على مرشدين أكفاء لهم إلمام حقيقي بالبلاد. كانت خطوتي الأولى هي الاستغناء عن خدمات فرج الذي رجوته في جازان أن يحضر لي مرشدين حقيقيين، ولم يفعل شيئاً، وكانت النتائج كما قد وصفت. لقد وجدت شاباً مناسباً عند الآبار إلاَّ أنني رأيت أن أتطلع إلى رجال تسندهم السلطات. رفضت كل عروض الكرم والضيافة وأعلنت أنني سأرجع إلى جازان لأرسل تلغراف احتجاجاً إلى الملك[1]. حركهم هذا القول كما يفور النحل في خليته، وسرعان ما تقدم رجلان طاعنان في السن ومحترمان ومعهم الأوامر لمرافقتنا. لم أقبلهم دون اختبار لحسن الحظ، وكشف الاختبار أن كليهما كان أعمى لا يستطيع أي منهما رؤية ما هو أبعد من القرية، وقد اختلفا في عفوية حول تعريف العلامات الأرضية التي أشرت إليهما نحوها.

كان هذا فوق احتمالي وأنا أحتج حيال غياب الجدية من جانب مدير الشرطة والرؤساء المحليين، وعليه فقد أصدرت الأوامر لإعادة كل شيء إلى الشاحنة لرحلة فورية ثم غادرنا الموسم بعد ساعتين من دخولنا لها، وخلال عشر دقائق كنا عند آبار أعتم لنسحب بعض الماء للّيلة. رأيت بلدة ميدي من الموسم وهي على

(١) أن مساندة الملك عبدالعزيز ودعمه لإنجاح رحلة فيلبي كان له الأثر الكبير في جميع المناطق التي زارها. ونلاحظ على جميع صفحات هذا الكتاب أن أمراء المناطق ومشائخها وأعيانها كانوا على أهبة الاستعداد في تقديم العون والمساعدة لفيلبي، وهذا ناتج عن توجيهات الملك عبدالعزيز لهم وحثهم على فعل كل ما يسهل مهمته. (ابن جريس).

الساحل ليست بالبعيد ناحية الجنوب من موقعنا، وبها قلعتها الرئيسة التي تسمى المنصورية إلى الداخل قليلاً. كانت هنالك قلعة أخرى تقع قريباً من موقعنا تسمى قلعة الجوبا. رأيت كذلك تلال حرض على مسافة ناحية الشرق ومعها القرية والتلال التي تحمل الاسم نفسه وهي محتضنة في انطواءات عند رأس الوادي، الذي يدخل ماراً بالجانب الشمالي للموسم يروي حقولها. أصبحت لدي فكرة تطبيقية للحدود في الجوار المباشر. طفنا من عند الحافة حول التلال الرملية حتى وصلنا إلى مقبرة كبيرة قديمة على حافة مسطح سبخي واسع. تسمى النصايب والاسم مشتق من نتوء من قبابها المحطمة ويعزى وجودها لبني هلال. كان حجم بعض القبور فوق المألوف ومبني من بلكات كبيرة من صخر مرجاني ويتجه شرق-غرب، وكان طول أكبرها الذي قمت بفحصه يصل إلى عشرة أقدام وعرضه خمسة أقدام.

يمكننا رؤية الميناء الصغير الذي يسمى المرسى والعشش المهجورة. لقرية كميلة الصغيرة. يجري الطريق مباشرة إلى ميدي وبه عمود حدودي، وعلى الرغم من أنني قد تجولت في شكل دائري حول الساحل لفحص كميلة ونهاية الحدود الدولية البحرية، فإنه يكون من الأفضل أن احتفظ بالوصف لها للفصل التالي فوق حدود السهل. لقد فرغنا من مدن السهل على أي حال في الوقت الحاضر.

الفصل الواحد والثلاثون

حدود السهل

يقع أكثر الأقسام خطورة بين المملكة العربية السعودية واليمن ولكونه غير حصين بين ميناء كميلة الصغير للصيد والتلال الواقعة إلى الخارج من الحاجز الجبلي الرئيس حول قرية حرض اليمنية المحصنة. وقعت حرب الأسابيع الستة فوق هذا القسم من الحدود في عام ١٩٣٤م حين اندفعت القوات السعودية بقيادة الأمير فيصل داخل اليمن ومعهم بنادقهم وحركة نقلهم الآلية في طريقهم إلى ميناء الحديدة، التي دخلوها دون صعوبة. كانت بقية الحدود، التي على جانبها الشرقي رمال الربع الخالي المهيبة، صعبة الاختراق لأي من الطرفين، بينما كانت الجبال المركزية احتمال ميئوس منه لكي يُحاول جانبه.

واجه جيش الأمير سعود في الشرق، فوق الطريق الصعب لوادي نجران وروافده، مأزقاً بسبب أن العدو كان متمكناً من المداخل القليلة الحيوية التي تقود إلى داخل البلاد. إلى جانب صعوبة إمداداته فوق هذه المناطق الصعبة، على الرغم من أن بعض السيارات قد وصلت حتى الحدود عبر طريق الفيل، لم أكن قد قمت برحلتي من نجران إلى شبوة ومقاطعة الجوف حينها، وكانوا يعتقدون خطأ أن محاولة عبور قوات محمولة على السيارات على امتداد شرق الجبال ستنتهي بالفشل. نعلم الآن أنه يمكن للأمير سعود أن يصل بسهولة إلى الجوف ومأرب وتسنده قوة آلية، إلاَّ أن عمليات عام ١٩٣٤م وجدته قد وقع في شراك الجبال المستحيلة، بينما كان شقيقه الأصغر يكتسح السهل الساحلي بنصر سهل. كانت

مشكلته الوحيدة هي اختراق الحدود نفسها على شريط وادي ميدي وهو المجرى أقصى الجنوب بين المجريين الذي ينقسم داخله وادي حرض في الانبعاج من الجبال إلى السهل. يخترق المجرى الآخر أرض المملكة العربية السعودية، ويمر إلى الشمال من الموسم ويدخل البحر، كما سبق أن ذكر، عبر مصب المغشوش. ورد ذكر القلعة في حرض عند رأس هذا الوادي، وربما تعد عقبة كأداء، بينما وقفت عند النهاية البحرية للمجرى قلعة الجوبا، على بعد نصف الميل إلى الغرب من المنصورية، بالإضافة إلى أن بلدة ميدي تشتمل على عدد من القصور يعود تاريخها إلى أيام حكم الإدريسي. يطلق عليها بصفة عامة اسم قلعة السيد لهذا السبب. توجد قرية محصنة في وسط مجرى وادي ميدي تسمى مشابية تنتمي إلى قبيلة بني مروان، أو المراونة. عبر الأمير فيصل في الحقيقة، عن طريق جانبي، هذه النهايات المحصنة لخط الدفاع هذا واخترق قوات العدو التي كانت تحرس المجرى بعد معركة حادة. انعزلت قريتا حرض وميدي بهذه الطريقة، واستسلمتا بعد أيام قليلة.

يجري هذا الجانب الحساس من الحدود عبر السهل من البحر إلى التلال مسافة تقارب العشرين ميلاً، منها تسعة أميال تجاه الشرق، وخمسة أميال تجاه الشمال، وستة أميال إلى الحدود السهلية عند بنر، وخمسة أميال تجاه الشمال الشرقي من حرض. كان هذا الترتيب بناءً على المعاهدة المشروطة لعام ١٩٣٤م، التي تمنع إقامة تجهيزات عسكرية أو تحصينات داخل مسافة خمسة أميال من الحدود. تركت قرية ميدي في موقعها، على الرغم من أنها الأقرب إلى الحدود، وللحاجة إليها لأسباب أخرى، ولما كان من المستحيل الإصرار على تدمير حرض، وهي مركز إداري مهم، فقد نقلت الحدود حولها لتتوافق مع اتفاقية السلام.

يمتلك هذا الخط الحدودي، إلى جانب أنه متلوٍ وفي بعض الأجزاء يصعب التعرف عليه، ضرراً آخر هو أنه يفصل أرض قبيلة واحدة بين دولتين، لم يكن ثمة مفر من هذا في حالة ميدي ووراديها وقد تركتا لليمن. يتكون قسم قبيلة بني مروان الواقع داخل الجانب السعودي من الحدود في جهة الغرب، العجيبي (العجيبية) في الوسط، وقيس (جمع قيوس) بعيداً ناحية الشرق، بينما تقع على الجانب اليمني أقسام بني زيلع ومغفلي (مغافلة) بهذا الترتيب من الغرب إلى الشرق، ويكون قسم بني حدَّاد بعيداً ناحية الشرق وفيما يليهم يكون قسم الجعادرة. توجد مجموعات مبعثرة في هذه الأجزاء الشرقية لتهامة عند مفرج حوض وادي حرض هي: آل حوضان في حرض نفسها مثلاً، وآل علي في قرية وعلان السعودية.

كما يوجد عنصر يسمى مخلوطة في بعض قرى الجانب الشرقي من أرض مروان على الجانب السعودي، غير أنني لست متأكداً إن كان هذا ولاء قسمي أم ولاء وصفي، يعني أناس من سلالات خليط[1]. يستخدم اللفظ حرضي على الجانب اليمني ليعني أناس من حرض ولا يعني القسم القبلي أو تحت القسم. يوجد عنصر آخر يسمى حبة جرح ويجاري الجعادرة على الجانب اليمني، قد يكون تحت قسم الجعادرة إن لم يكن قسماً مستقلاً. وأخيراً يبدو أن أقصى قسم شرقي لقبيلة بني مروان، على الجانب السعودي وإلى الجنوب من تعشر. إنه ينتمي إلى التنابكة والتي قد تكون تحت القسم الوحيد داخل قبيلة قيس. تكون قبيلة المروانيين على أساس الأرض، أهمية، ولما كان الدم أكثف من الماء، فمن الواضح

(١) يقصد بذلك: - أي أقوام خليط من عدة عشائر مختلفة، ولهذا سموا بهذا الاسم. (ابن جريس).

أن فصلها بناء على الولاءات، ربما يكون في بعض الحالات محرجاً لواحدة أو الأخرى من الدولتين.

تحتل الجبانة[١] التي ورد ذكرها في الفصل السابق مساحة كبيرة، مررت خلالها بأطلال بناء كبير، استخدمت في تشييده بلكات كبيرة من الصخور المرجانية. ربما كانت قلعة قديمة تسيطر على الطريق الساحلي الذي تحف صفحاته كثبان رملية متدحرجة، ويحفه على الجانب الغربي مسطح سبخي واسع، والتي لا بد أن يكون البحر قد شغلها في الأزمان القديمة.

يوضح كل ساحل تهامة هذا كيف أن البحر قد دُفع إلى الخلف بواسطة الطمي المتقدم الذي جلبته الأودية العديدة من الجبال، والتي سأقوم بزيارة مناطقها العليا في الأيام القادمة. يصعب التمييز بين القبور والمباني الأخرى، ما عدا القلعة الكبيرة، إلاَّ أن كل المنطقة كانت مغطاة بالقطع المكسرة، ويتضح أن هذا الموقع كان موطناً لمجتمع كبير، ربما كان يعيش في عشش الوتل والأعواد المألوفة هذه الأيام. وقد تكون موقعاً مبكراً مهجوراً لقرية ميدي نفسها أو لقرية الموسم، عند حافة البحر، والتي تقع الآن على مسافة خمس دقائق سيراً على الأقدام من مرسى كميلة. وجدنا في هذا الموقع عششاً قليلة مبنية من الأعواد لقرية صيد صغيرة وكانت توجد بجوارها أكواماً من بلكات مربعة من الحجارة قد تم جمعها -ربما حديثاً- لأجل بناء حاجز للماء داخل المياه الضحلة لملاءمة الصيد وللقوارب الأخرى التي تتعامل مع الموسم.

يحتوى الميناء على مواقع رسو ملائمة للسنابك المحلية، وذلك لأنها محمية من البحر بواسطة جزيرة صغيرة يكسوها مانجروف مزدهر (شورة) إلى عمق

(١) الجبانة: يقصد بها المقبرة. (ابن جريس).

(٥٠٠) قدم. يفصل مجرى ضيق بين هذه الجزيرة وجزيرة الدويّمة ويصل طوله إلى ثلاثة أميال. تبعد نهايتها الشمالية إلى مسافة نصف الميل من قرية كميلة وينتمي نصف سطحها الرملي أو المغطى بالمانجروف إلى العربية السعودية والنصف الآخر إلى اليمن. تعلم نهايتها الجنوبية بقلعة قديمة تغطي المرسى النظير الذي يقع بين طرف الجزيرة والأرض الرئيسة. ويطلق عليه اسم المرسى، كما توجد قرية صيد صغيرة على الأرض الرئيسة في مواجهتها تسمى خور تمتد من الخليج الذي يجري إلى الشرق من جزيرة الدويمة إلى أحد أحواض الموسم. يكوّن كل من هذا المنخفض والخليج الحدود الفعلية وبها أولى الأعمدة الحدودية على الشاطئ الشمالي. لا يوجد عمود حدودي على الجزيرة، والتي لا فائدة ترجى منها لأي أحد.

وصلنا سيراً على الأقدام من مرسى كميلة وعبر المسطح السبخي إلى الطريق عند الحدود الفعلية، ومعلّم دون وضوح كافٍ بحجر واحد شكله غير منتظم ويرتفع إلى تسع بوصات، موضوعاً فوق سطح السبخة بجوار الطريق. كان هذا هو العمود الحدودي (رقم ٢٣٨) ويطلق عليه اسم رزم دخلة بن زهير تكريماً له، وقد كرمناه بدورنا باختيارنا لموقعه لنعسكر فيه لقضاء الليلة، وذلك لأنني لازلت أحتاج لفحص العمود الوحيد الذي يقع ناحية الغرب على حافة مجرى الدويمة. سأقوم بوضع أرقام تسلسلية فوق كل الأعمدة الحدودية من هذ الموقع وشرقاً إلى الخلف حتى يتوفر لدينا حساب لكل هذه العلامات من الرقم (١١٩) (نيد فضة) والتي من عندها أوقفت فحص الحدود لأقوم بزيارة جازان.

لم يكن الوصول سهلاً إلى العمود الحدودي إلى أقصى الغرب من الشريط وذلك لأن البحر كان قد غمر حديثاً لهذا الجانب من المسطح الملحي، والذي كان

مستنقعاً غاصت فيه أرجلنا إلى مستوى الركبة أثناء سيرنا فوقه على الأقدام. لتجنب خطورة التحول، فقد أفادني حسن الطيب، شيخ قبيلة عريبي، الذي كان مرشداً لي، أن الحجر الذي يوجد على جانب الطريق كان أول عمود حدودي يتم نصبه. لم أصدقه، وكان لديه من الإحساس بالخجل ما جعله يرافقني عبر المستنقع الملحي، واعترف بخطئه والشاهد يقف أمام حواسنا. أخبرني بعد ذلك، بأن هذه العلامة الحدودية تحمل الاسم الرسمي مقطع الرديف (رقم ٢٣٩) من فرع الخليج الذي تقف عند حافته مجموعة من حجارة كبيرة مرصوصة مع بعضها في كومة، كانت تقع تجاه الشمال من قلعة المرسى فوق الجزيرة، بينما تقف قلعتا ميدي الرئستين في بروز ناحية الشمال الشرقي، وتقع البلدة نفسها قليلاً إلى يمينهما عند النهاية البحرية لسلسلة منخفضة تقف فوقها قرية المنصورية. يبدو أن البلدة تواجه البحر من فوق صخرة منخفضة، وكنا نستطيع رؤية أعمدة الأشرعة للسنابك تدخل المرسى في الميناء. ويقع حاجز البحر الطبيعي ناحية الشمال الغربي بينما يجري خط الحدود إلى العمود التالي، بالقرب من معسكرنا، قليلاً ناحية الشمال الشرقي. تمكنا الآن من الحصول على منظر أفضل لجزيرة الدويمة، وسلسلة مرتفعة من الرمل تجري من مرسى إلى نقطة المنتصف، بينما يمتد بين موقعنا وبين المجرى الذي تمتد فوقه مانجروف كثيف.

سرنا فوق الطين اللزج والمالح أثناء عودتنا للمعسكر الذي يبعد فقط مسافة (١٧٥) ياردة لم يكن لدينا لوجبة العشاء غير الأرز، وعلى غير عادتي فقد تعشيت بمفردي تعبيراً عن عدم ارتياحي لحسن الطيب وزميله شيخ العريبيين واسمه إبراهيم، اللذين يبدوان وكأنهما يعوقان عملي بدلاً من دفعه إلى الأمام فوق الحدود إذا كان ذلك العمل يتضمن إجهاداً لهما. توقف جهاز اللاسلكي، ليزداد

الأمر تعقيداً، بعد خدمة طويلة ممتازة امتدت على مدى ثمانية أشهر، ولم أكن معتاداً على التحرك والانتقال دون الاستماع إلى الأخبار، كما افتقدت ملاحظاتي للنجوم. لم يكن هذا الاعتبار الأخير ذا أهمية الآن، وذلك لأن معظم النقاط المهمة على الساحل قد تم تثبيتها بصورة مقنعة في خرائط إمارة البحر، ومن هذه اللحظة وإلى نهاية رحلتي فلن نكون بعيدين عن البحر. كان أهم حدث قد وقع ظهر اليوم هو الاكتشاف المدهش لقطع من قشور بيض النعام وسط دبال من أصداف البحر، نتجت عن تجارة أسواق أم اللآلئ في مصوع وهي صناعة محلية في هذه الأنحاء. كان أكثر أنواع الصدف شيوعاً هو الكوكيان، ويتم شحنه من الشمال عبر البحر بكامله وبداخله اللحم المتحلل. معرفة كيف وصلت بيوض النعام إلى هذا الموقع يظل سراً، ومن الواضح أن وجودها هنا كان بواسطة الإنسان، ربما من أفريقيا. لا تزال الشاحنة معنا وكذلك السائق الذي يسره أن ينادى باسمه شهرين.

وصلت في الخامس عشر من يناير إلى أقصى المواقع الجنوبية للحدود، وأحسست بأن رحلاتي تقترب من نهايتها. وحينما يتم اتصالي مع النقطة الخارجية البعيدة للحدود من جانب الاتجاه المعاكس، أكون حينها في طريق العودة إلى جازان للمرة الأخيرة، ومنها إلى الوطن تجاه مكة. أشرق الصبح والسماء ملبدة بالسحب ناحية الجنوب والجنوب الشرقي، والغرب، مع نسيم بارد لطيف. كان هنالك ندى أثناء الليل، غير أن منخفض السبخة الذي كان علينا أن نعبره لنصل إلى العمود الحدودي التالي كان مبللاً ومستنقعياً، وقد استفدت من تجربة الأمس فخلعت حذائي ودخلت السبخة وأنا حافٍ يرافقني كل من حسن الطيب وإبراهيم، بينما سافرت بقية المجموعة بالسيارة على الطريق الذي يجري في موازاة الحدود.

وصلنا إلى عمود سديد الحدودي (رقم ٢٣٧) عند حافة تل رملي منخفض يجري من ناحية الشمال الغربي مسافة ميل واحد، ويدور على الجانب البعيد من المنخفض - لا يزال هو خور الرديف - ومن ثم إلى معسكرنا. كان العمود الحدودي عبارة عن كومة صغيرة من بلكات مرجانية كبيرة يكسوها ملح السبخة. أمكننا رؤية قرية الموسم الآن ناحية الشمال الشرقي، بينما انتشرت سلسلة رملية عالية تسمى الحافية ناحية الشرق بعد مسافة. ربما كان هذا هو «التل الرملي» الذي ظهر في خريطة إمارة البحر. وتقع فيما يلي هذا مجموعة تلال حرض.

يتكون العمود الحدودي التالي واسمه السكين (رقم ٢٣٦) من أربعة أو خمسة بلكات من المرجان، مدفونة إلى وسطها في الرمل ويصعب العثور عليه بين شجيرات الصحراء يشار إليه أحياناً باسم المقاطعة «أضراع الحشية»، وتنتمي إلى منطقة كانت زراعية ذات يوم (دخن) فوق فرع مهجور منذ زمن طويل لوادي حرض المغشوش. أخبرني رفاقي من الموسم بأن الجبالية ويعنون بهم الحكومة اليمنية، أو بصفة عامة رعاياها قد أقاموا سداً في الوادي الرئيس إلى أعلى، وكانت النتيجة، أن المجاري في الأرض السعودية نادراً ما تتلقى مياه السيول. كان مواطنو الموسم، في المواسم الجافة، يهجرون مساكنهم وينتشرون بحثاً عن سبل الحياة في مكان آخر. يفيد نمو كثيف لنبات الغضا والعراد في مجرى حشية بوجود مياه، أو أثر رطوبة تحت التربة، غير أن هذه بطبعها نباتات صحراوية ولا تموت إلاَّ بتعاقب سنوات متتالية من الجفاف. كان عرض هذا الوادي (٥٠٠) ياردة وقد سدّت سلسلة رمال الحافية جانبه الأيسر.

اتجهنا الآن ناحية الجنوب الشرقي في اتجاه الحافية، وقد علمها العمود الحدودي الذي يسمى الحافية اليمانية (رقم ٢٣٥) في وسط أرض رملية منخفضة

تسمى نشر وتنمو فوقها الكثير من حشائش الجليل والثمام على الحافة الجنوبية للسلسلة الرئيسة على بعد ميل ونصف الميل. تمكنَّا الآن من رؤية أفضل لقلعة المنصورية التابعة لميدي، على بعد ثلاثة أميال فقط ناحية الجنوب. كانت بناءً حجرياً متطاولاً وعلى زواياه حصون دائرية وبناء بارز مرتفع يرتفع عليه ساري العلم في وسط فنائه. يقف العمود الحدودي التالي في هذا الخبت الرملي نفسه، ويسمى رديف القراد (رقم ٢٣٤) وآخر بالاسم نفسه (رقم ٢٣٣) على بعد (٣٠٠) ياردة من الطريق الذي يناسب السيارات ويقود من طريق الساحل إلى داخل البلاد. نما إلى علمي أن لجنة الحدود قد جاءت بأشخاصها واجتمعت في هذا الموقع لتقرر الموقع الصحيح للعمود لأجل أن يكون الطريق داخل الأراضي السعودية تماماً. تم وضع الأعمدة الأخرى، عند ذلك الذي يقع بجوار معسكرنا وحتى هذا الموقع، بواسطة البدو بتوجيه من اللجنة، لربط العمودين الأساسيين دون إثارة مشاكل قضائية حول الطريق الذي يقود في نهاية الأمر إلى قرية صامطة[1] الكبيرة على تعشر، رئاسة قبيلة بني شبيل.

يتجه شريط الحدود حتى هذا الموقع ناحية الجنوب، غير أنه استدار الآن ناحية الشمال الشرقي، وبمتابعة هذا الاتجاه وصلنا سريعاً إلى طريق السيارات وسلكناه مسافة ميل واحد، إلى حيث منخفض واسع كثيف الشجيرات يسمى خبت تفاريد يمتد مسافة شمالاً وجنوباً عبر الطريق، يحتل شريطه العريض المغطى بشجيرات القضب والذي يبلغ عرضه (١٠٠٠) ياردة وسط السهل المنخفض أكثر من

(١) صامطة: – أحياناً تكتب وتلفظ بحرف (الصاد) وأحياناً أخرى بحرف السين (سامطة)، والأكثر شيوعاً واستخداماً هو لفظ (سامطة). للمزيد عن بلاد سامطة، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٦٨ ــ ١٦٩ . (ابن جريس).

منخفض، وبرز كشريط أخضر لطيف ثري ليكسر الملل الذي تجلبه الأرض العشبية المتقطعة على جانبيه. تعد هذه المنطقة منطقة مراع جيدة خاصة بعد الأمطار، غير أنه تبدو من مظهرها أنها لم تصبها الأمطار لفترة زمنية طويلة. وقفت كومة حجارة حدود تفاريد (رقم ٢٣٢) في وسط هذا الشريط الأخضر وعلى مساحة تزيد قليلاً عن ميل واحد من جهة قرى عريبي الشمالية وحتى مشابية في وادي ميدي. توقفنا مدة ليست طويلة تحت ظل شجرة قضب لتناول الشاي وللتدخين ولنعطي الماكينة فرصة لتبرد وهي تحت شريط أخضر آخر مملوء بشجيرات تسمى قزي. وصلنا مباشرة بعد هذا إلى العمود الحدودي الذي يسمى يمنى المجاحف وهي منطقة خبت عارية يكسوها عشب ميت. كان هذا هو العمود الحدودي (رقم ٣٣١) وأمكننا عنده رؤية خط الأشجار التي تعلّم مجرى الموسم أو المغشوش وبه قريتا غويرة[١] (العريبية) ودخيلة (الازيبية) على جانبه القريب.

ذهب حسن الطيب على رجليه إلى دخيلة ليعلن عن اقترابنا من بلاد العريبي وإعداد المرشدين الضروريين وذلك لأن هذا العمود الحدودي هو آخر الأعمدة داخل أراضي الازيبيين. استقر بي المقام في هذه الأثناء لإغفاءة الظهيرة تحت شجيرة قضب، تلك التي جذبت نحوها ألوف الفراشات بيضاء عروق الأجنحة وقد تدلّت خادراتها في أعداد ضخمة أيضاً من الأوراق والأغصان. عبرت قافلة صغيرة الموقع أثناء استراحتنا وقد خاطبها بعض رفاقي، ويبدو أنهم كانوا يتساومون بشدة حول سعر شاة لوجبة المساء. مرّت بنا مجموعات صغيرة من الناس بعضهم

(١) غويرة: ــ يطلق عليها اليوم اسم قرية الغوره، وسكانها يطلق على الواحد منهم الغويري وليس العريبي أو الازايبي كما ذكر فيلبي. (ابن جريس).

على قدميه وبعضهم على ظهور الحمير وبعضهم على ظهور الجمال، وعلى فترات، سالكين على ما يبدو أنه طريق سريع حقيقي يربط بين دخيلة ومشابية. ولا يوجد ما يدعو إلى القول بأنهم لا يلتزمون بالشكليات الحدودية وهم في ترحالهم من وإلى، في مناسبات قانونية. وجدتُ قطعة أخرى من قشر بيض النعام، بالقرب من عمود تفاريد الحدودي، وكنا نشاهد على مدار اليوم، خاصة في المساحات السبخية، آثار حوافر الغزلان مقبلة أو مدبرة من البحر حيث تشرب. يبدو أنها تعجب بالملح والسائل معاً، غير أن شرب مياه البحر هو خاصية ثابتة لغزلان تهامة. لقد شاهدنا قطيعاً صغيراً منها في الخبت بعد بداية مسيرتنا بقليل.

كان هذا عند الساعة الرابعة مساءً، وهو الوقت الذي أدركنا فيه حسن السهل، شيخ القيسيين ومعه شخص آخر مشهور بأنه خبير للجغرافيا المحلية. على رغم من كل هذا، فقد طال بحثنا مدة ربع ساعة، عن العمود الحدودي التالي الذي يتألف من ثلاثة كتل من الحجارة ملقاة معاً ويصعب تحديد موقعها في قفر تزعق فيه الرياح ويكسوه عشب ميت. كانت بقعة كئيبة بحق ويسمى العمود الحدودي عضير الحب (رقم ٢٣٠). أمكننا رؤية قرية مشابية التابعة لبني زيلع إلى جنوب عضير الحب، وليست بالبعيدة، وهي على حافة شريط طويل من شجيرات تعلّم مجرى وادي ميدي، وهو الفرع الجنوبي لوادي حرض، والذي يمكن أيضاً رؤية رأسه فوق السرج الذي يقع بين تليّن مرتفعين إلاَّ أننا لم نر قلعة القرية. أمكننا أيضاً رؤية قرية القمبور التابعة لقبيلة عزيبي وهي على يمين دخيلة، وكذلك قرية رمثة التابعة لقبيلة قيس، وهي عبارة عن عشش من الأعواد ليست بالبعيدة وإلى شمالنا. يطلق على تلَّي حرض اسما حرض وخوفار بالتوالي ويطلق على

السرج اسم أم فج. تعرفت على تلال طحنان وعاصم وعسلة بعيداً إلى الشمال، غير أن مرشديَّ لا علم لهما بأشياء بعيدة كهذه. استطاعا على أي حال التعرف على سلسلة بنر وتلال محمر وجحفان وشقدم التي سنصلها في وقت لاحق. تقع ميدي ناحية الجنوب الغربي وهي واضحة ومعها قلعتان باسم قلعات السيد مرتفعتان في بروز فوق مباني البلدة الأخرى.

كان العمود الحدودي التالي (رقم ٢٢٩) واسمه مثعن سهلاً، وما هو إلا جذع شجرة وضع على الجانب ليعلم الحدود. قررنا أن نقضي الليلة هنا، وفرشت سريري فوق الحدود لأنام في دولتين. خرجنا الآن من الأقفار العشبية إلى داخل سهل واسع من أرض طينية تنتشر فيه الشجيرات وبعض الأشجار ذات الحجم المتوسط، وكانت قطعة من البلاد جذابة ولا ترتفع عن ساحل البحر بأكثر من (١٠٠) قدم. وتتويجاً لارتياحنا العام بخروجنا من الأرض الميتة من ورائنا، فقد أرسل لنا أمير الموسم حملاً هديّة للسلم، بينما أرسل أمير الخوبة، على مسيرة بعض الأيام ناحية الشمال الشرقي، ممثلاً له؛ ليقابلنا ومعه مرشد ليوجه خطواتنا. وصلتنا إمدادات الماء من القمبور واجتمعنا كلنا في تناسق واضح لنفي لحم الضأن حقه.

لاحظت بعد فترة صوت خفقان في الجو، بينما كان الضجيج الذي جلبه أزيز الحصاد وحشرات أخرى مقدمة ملائمة لهذه البلاد الغريبة الشكل. لقد ارتفعنا خطوة عن طرف الساحل، على الرغم من أننا لا نزال على مسافة من السفوح الجبلية، والتي فيما يليها، على أي حال التقطنا منظراً لعدد من القمم لسلسلة الجبال الرئيسة متضمنة حرم والنظير وارتفاعان بلا اسم متصلان بمرتفع آخر، وحاجور وحماطة وجريز - كلها على ارتفاع (٧٠٠٠) قدم أو أكثر فوق سطح

البحر، وتمتد على شكل وتر من الشمال الشرقي إلى الشرق وفي الترتيب الذي ورد. تمتعت بمنظر عظيم لهذه البانوراما الرائعة حينما صحوت من نومي حوالي الساعة السابعة صباحاً، وكانت الليلة خالية من الندى، ولم يمض وقت طويل حتى حجب الضباب والسحاب معظم المنظر بقية اليوم، تاركة فقط السفوح الجبلية في مجال الرؤيا وتسمح من حين لآخر بلمحات من الجبال العملاقة من ورائها. كانت الدرجة الدنيا للحرارة أثناء الليل (٦٤) درجة، وسجل مقياس الحرارة الدرجة القصوى عند العصر وهي (٨٤) درجة. كانت الظروف مثالية لمثل هذا السفر.

حضر إلى معسكرنا أثناء الليل رجل شرطة يسمى حامد، كنت قد رفضت خدماته في جازان، حينما كان يقضي إجازته، وفي الموسم حينما سبقنا في طريق العودة إلى عمله في الخوبة، وألحق نفسه مع مجموعتنا شئنا أم أبينا، تركت الأمر عند هذا الحد إعجاباً بمثابرته. بعد أن دعمنا أنفسنا بإفطار جيد بما تبقى من لحم الحمل والأرز من عشاء الأمس، وبدأنا المسيرة بروح عالية للمرحلة التالية من استكشافاتنا، رفضت السيارة، على أي حال، أن تتحرك بسبب البرد وسرنا ببطء على الأقدام يسبقنا مرشدونا منتشرين بحثاً عن العمود الحدودي التالي. وصلنا إلى العمود خلال خمس عشرة دقيقة، ناحية الشرق من معسكر ليلتنا وفوق الشكل نفسه من البلاد ذات الشجرات الكبيرة وتبعثر طيب لأشجار السرح. كانت العلامة الحدودية تتكون من عدد تسعة حجارة صغيرة في كومة مسطحة، وهي علامة مثعن الثانية، (رقم ٢٢٨) بينما وصلنا العلامة الثالثة (رقم ٢٢٧) وكانت عموداً خشبياً مسطحاً على الأرض يعلّم موقع اللقاء الثلاثي لقبيلة بني زيلع والمغفلي وهما قسمان من قبيلة بني مروان على الجانب اليمني، وقبيلة قيس على الجانب السعودي.

رفعنا العمود مؤقتاً في وضع قائم وزيناه بمثلي قسمي قيس وعريبي المحترمين وذلك لأجل أن أتمكن من التقاط صورة للمنظر. يبدو أن البلاد هنا، وكأنما بدأت تتكسر مرة أخرى بالأمواج المنخفضة للرمال وهي تتعدى تدريجياً السهل الطيني إلى جانب غطاء نباتي من قصب وعشب جاف وشجيرات قصيرة وبعض أشجار السرحة من حين لآخر. تقع قرية العويرض التابعة لبني زيلع على مسافة الميل الواحد، ناحية الجنوب الشرقي.

تنحني الحدود من هذا الموقع بعنف ناحية الشمال وتستمر كذلك لمسافة. وصلنا لما يدل على نشاط زراعي ونحن نقترب من الوادي، حيث كانت هنالك حقول ذات متاريس عالية على جانبي الحدود دون فصل واضح بينهما. تم تصحيح هذا سريعاً بوضع علامة حدود تحتوي على حجرين صغيرين موضوعين على الأرض، إلى خارج حلقة الظل الذي ألقته شجرة سرح كبيرة، وقد استلقيت تحتها، على الرغم من أننا لم نسر مسافة طويلة، لأجل الإغفاءة والراحة. هبت رياح قوية علينا وقل مجال الرؤيا. اعترض شريط من غابات كثيفة بيننا وبين وادي الحفيرة أمامنا، والذي كان يعلّمه شريط أكثر كثافة من أشجار وشجيرات ويحتوي على بئر جلبت لنا منها المياه.

توقفت الزراعة تماماً بالقرب من خط الحدود، وحينما وصلتنا الشاحنة أخيراً بعد الساعة الثالثة مساءً، كان سيرنا خلال طريق تنزهي. يعرف هذا الموقع الحدودي باسم خزن الحاج[1] (رقم ٢٢٦) بينما يسمى التالي له الحفيرة (رقم ٢٢٥)، وما هو إلاَّ جذع شجرة ميتة مغروس غير ثابت في كومة رمل على حافة

(١) خزان حج: هكذا ذكرها فيلبي مع أن الاسم الصحيح هو (خزن الحاج)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٧ . (ابن جريس).

الوادي. تقع قرية الحفيرة على مسافة (٢٠٠) ياردة إلى يسارنا، وأمكننا الآن رؤية قرية مثعن على مسافة نصف ميل ناحية الجنوب الغربي من موقعنا. وكانت أكثر القرى بروزاً ومنظرانية هي قرية رمثة، تقف على قمة سلسلة رملية إلى مسافة خلف الحفيرة. كانت أشجار الوادي، الذي يتواصل مع وادي حرض ويتصلان مع وادي المغشوش، مليئة بالطيور النساجة وأعشاشها المعلقة.

أرسلنا الشاحنة تبحث عن طريق أسهل ودخلنا إلى الوادي، وسرعان ما وصلنا إلى مجرى السيل الرملي الحقيقي، وكان عرضه حوالي خمسين ياردة وتحفه بكثافة أشجار الطلح والمرخ وغطاء نباتي آخر نموذجي. كوَّن فيما يلي هذا، سهل رملي آخر يكسوه شجيرات خفيضة والكثير من المرخ، وهو لا يزال جزءاً من الوادي، والذي حمل أيضاً مجرى آخر يسمى خريم، وهو بارز جداً ويكسو أرضيته غطاء نباتي فاقع الخضرة، معظمه نبات السنا ونبات العلقا وعدد كبير من أشجار الطلح. يتكون عمود خريم الحدودي (رقم ٢٢٤) من دستة من الحصى الكبيرة ملقاه مع بعضها على المتراس حول شجرة قصب ميتة في وسط المجرى. برزنا على الجانب الآخر فوق مرتفع ضئيل يكوّن عتبة الخبت الواسعة أو ما يشبه البراري تكسوها حشائش محتضرة. تسمى هذه الأرض طرف السر والتي فوق مرتفع آخر لها، ويسمى المطيريه، يقف ما يزعم أنه علامة حدودية، حجران صغيران موضوعان على كومة من الأعواد. سيطرنا من هذا العمود (رقم ٢٢٣) على منظر شمولي لأرض مراعي السر التي لابد أن تكون منظراً جميلاً أثناء المواسم المطيرة، غير أنها الآن صورة للكآبة. قوبلنا هنا بوفد من قبيلة بني حُمد، ويبدو أنه فرع مستقل من قبيلة بني شبيل في صامطة والذين يزعمون أنهم قد قدموا أصلاً من شهرة في اليمن. لا يدركون عن سلفهم غير أنهم يرفضون أي

علاقة لهم مع قبيلة بني مروان والتي يشارك قسمان منها - قيس على أحد جانبي الحدود والمغفلي على الجانب الآخر- معهم نقطة اللقاء الثلاثي عند العمود الحدودي التالي الذي يقع أمامنا، ويسمى الدنقور (رقم ٢٢٢). هبطنا قليلاً من سلسلة المطيرية لنصل إلى هذا الموقع، إلى سهل أكثر استواء من الطين والتربة الخفيفة، وقد غطاه الكثير من شجيرات القضب والسرح مع عدد قليل من هذه، وقد بلغ حجمه حجم الأشجار الصغيرة. يسمى هذا السهل، أو قل منخفضاً فيه، مجحف[١] إلاَّ أنه جزء من أرض السر.

لم يصلنا شيخ قبيلة بني حمد، واسمه طاهر، حتى الساعة التاسعة مساءً غير أنه أقبل ومعه هدايا وقد رحبنا بها، كانت عبارة عن شاتين والكثير من الماء وأغراض أخرى. استأذن مباشرة بعد تناول العشاء معنا ليذهب لينام في منزله تحاشياً لبرودة الليل في هذا المكان المكشوف، غير أنه وعد بالحضور في الصباح. كانت قرية المجنة على بعد ثلاثة أميال فوق رافد أبوصول[٢] لوادي تعشر، بينما يحتل جناحه القبلي المواقع العليا (في تهامة بالطبع) للوادي وروافده في مقابل التضاد مع قبيلة بني شبيل الذين يقعون ناحية الشمال في المرتفعات الوسطى للمجرى نفسه ويمتدون إلى وادي لية إلى الشمال. كان عمود الدنقور الحدودي مضحكاً للدرجة التي لم أستطع مقاومة الإغراء بالتقاطه ووضعه في جيبي وأن آخذه معي تذكاراً. كان العمود يشتمل على ثلاثة أحجار صغيرة جداً موضوعة

(١) مجحف: هكذا ذكره فيلبي مع أن بعض السكان المحليين يذكرونه باسم (محجف) أو (محجن)، وسوف نستخدم في الصفحات التالية اسم (محجف) بدلاً من (مجحف) و(محجن). (ابن جريس).

(٢) أبام صول:- هكذا ذكرها فيلبي مع أن الاسم الصحيح هو (أبو صول)، وهو ما سوف نستخدمه في الصفحات التالية، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٨ . (ابن جريس).

فوق تكوين تحتي كثيف الشجرات لشجرة سرحة، وأُحسن أمر سرقتي هذه باستبدال الحجارة بعلبة أناناس فارغة مستوردة من اليابان. كانت هذه المعلبات تباع وتشترى هنا بأسعار مخفضة لدرجة مدهشة في سوق جازان، وأشهد بأن المحتويات كانت ممتازة.

كانت درجة الحرارة أثناء الليل كمثيلتها في المثعن ولم يكن هنالك ندى. أفسد الضباب والغمام المنظر الصباحي غير أنني استطعت أن أضيف عدداً من القرى الجديدة إلى قائمتي، وكلها كانت تقع شيئاً ما إلى الشمال من موقعنا، وهي الشمهانية وعنطوطة[1] والجزعة والطوال. كان آل بني حُمَّد عصبيين فما يخص معلوماتهم الجغرافية. وقد أرسلوا كشافيهم في وقت مبكر من الصباح لجمع كل الأعمدة الحدودية التي كان علينا أن نقوم بزيارتها اليوم التالي. لا يهتم هؤلاء الناس بمثل هذه الأشياء ولا يستطيعون أن يفهموا لماذا يهتم بها الآخرون.

تتجه الحدود من الدنقور مرة أخرى ناحية الشرق، مع قليل من الانحراف للشمال، ثم يعبر منخفض محجف الضحل عند طرفه الجنوبي، الذي عنده نستطيع رؤية الأشجار التي تعلم منخفض السر الحقيقي إلى شماله والذي تأخذ كل أرض المراعي هذه اسمها منه. تتجمع المياه في كل هذه المنخفضات بعد الأمطار وتظل فيها حتى يتم امتصاصها غير أنها ليست خطوط صرف بأي شكل من الأشكال. استغنيت عن خدمات شيخي العريبيين والقيسيين دون أي مكرمة لهما لأنهما لم يقدما لي شيئاً، وذهبنا نحن ومعنا مرشدانا الجدد من المعسكر

(١) عنطوطة: تم تغيير اسمها أثناء إمارة محمد بن تركي السديري على منطقة جازان إلى اسم (الرحمانية). (ابن جريس).

ووصلنا خلال عشر دقائق إلى عمود مفجر الضمار الحدودي (رقم ٢٢١) وكان عبارة عن حجرين كبيرين وحجرين صغيرين وهذه الأحجار ملقاة فوق كتلة عشب جاف. ووصلنا بعد عشر دقائق أيضاً إلى علامة القوباء[١] الحدودية (رقم ٢٢٠) وقد اكتسبت اسمها هذا من المنخفض ذي الشجرات الكثيفة الذي يجري من ناحية الجنوب الشرقي لمسافة (٥٠٠) ياردة داخل أرض المغفلي (باليمن) ليتصل مع منخفض آخر أطول (يسمى أيضا القوباء) يقطع الحدود على زاوية قائمة عند العمود الحدودي التالي واسمه المراويد[٢] (رقم ٢١٩). يتكون هذا من عدد سبعة أحجار متوسطة الحجم على شكل كومة مسطحة، تعلم الخط الذي تعبر فيه الحدود المنخفضة، والذي يقع ثلثاه (حوالي الميل الواحد) في الجانب اليمني، وجدنا فيه جرادتان منعزلتان. كانت الشاحنة لا تزال معنا وهي تجاهد في ثقل فوق كتل الحشائش غير المريحة في الخبت وقد استفدنا من حين لآخر للإسراع بتقدمنا، برغم أن السير على الأقدام كان أفضل.

برز انحدار لطيف عند المرتفع الخفيف فيما يلي المنخفض وارتفاعه ٢٠٠ قدم فوق سطح البحر فوق سهل واسع بجوار السفوح الجبلية. وصلنا فيه بالتوالي إلى الأعمدة الحدودية. هم أبو الخطاب (رقم ٢١٨)، وخزوة عسلة[٣] (رقم ٢١٧)

---

(١) قوبة الحدودية:- هكذا دونها فيلبي وذكرتها بعض المراجع التي تحدثت عن الحدود السعودية اليمانية، ولكن كثيراً من السكان المحليين ينطقونها (القوباء) وآخرين ينطقونها (القوبة)، ولهذا سوف نستخدم كلمة (القوباء). (ابن جريس).

(٢) المراويد: هذا ما ذكره فيلبي مع أن الاسم الصحيح في بعض المراجع والوثائق هو (كتف المراويد)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص٤١٨ (ابن جريس).

(٣) خزوة عسلة: هذا ما دونه فيلبي مع إن الاسم الصحيح هو (خزنة عسلة)، انظر: آل زلفة، **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٨٣ (ابن جريس).

وتقع هذه على الحافة البعيدة لحوض ضحل جداً يعترضه خطًّا صرف رمليان يجريان شمالاً وجنوباً. يخترق الطريق من حرض إلى تعشر (صامطة) الحدود قريباً من هذه العلامة الحدودية، والتي بالكاد ترى وذلك لأنها تتكون من عدد ستة أحجار صغيرة بجوار جذع شجرة ميت وساقط. أعطت لجنة الحدود هذه الأراضي الموحشة بعداً واسعاً وتركت الأمر للقرويين المحليين والبدو لتعليمها بأي أسلوب يرغبون فيه حسب تقاليدهم. كنا لا نزال فوق الشريط الذي يفصل بني حُمدّ عن المغفلي، غير أننا أرسلنا رسلاً لتحذير التنابكة (بني مروان) وعناصر الأشراف، الذين يتقاسمون معهم القسم التالي من الأرض السعودية على امتداد الحدود. جلبت لنا المياه، في هذه الأثناء، من قرية مجاورة في جرار فخارية ضخمة تشبه القرع تحملها الجمال. يبدو أنه لا توجد قرى على الجانب اليمني للحدود، لم يثر ظهور سيارة (موتور) غير المتوقع أي صدى اهتمام به أو فضول على الجانب الآخر.

وصلنا سريعاً إلى مجرى الحوسية[١] المليء بأشجار المرخ وعبرناه، وهو أول رافد لنظام تعشر يواجهنا. ينحدر بالقرب من وادي حرض، على اتجاه ناحية الشمال أكثر لنتوء التلال حول قرية حرض. ويقف قليلاً إلى الخلف منها حجر مربع جيد، ارتفاعه قدم، يمثل العمود الحدودي (رقم ٢١٦) الذي يطلق عليه اسم كدف[٢] أم خوبة[٣]. لقد تم حمله بالفعل كل الطريق من بئر في مجرى تعشر

(١) مجرى الحوسية: يطلق عليه أيضاً اسم (مفجر الحوسية). (ابن جريس).

(٢) كدف هذا ما ذكره فيلبي مع أن بعض السكان المحليين ينطقونها (كتف). (ابن جريس).

(٣) أم خوبه أو أمخوبة هكذا ينطقها ويكتبها بعض السكان المحليين، في حين أن البعض الآخر ينطقها (الخوبة)، وجميع الألفاظ وطريقة نطقها سليمة. (ابن جريس).

ليعلم موقع اللقاء لثلاثة أقسام قبلية هي: بنو حمد إلى الشمال والمغفلي وبنو حدَّاد (التابعين لبني مروان) على الجانب اليمني. اشتق الاسم من منخفض على مسافة (٥٠٠) ياردة ناحية الشمال الغربي، والذي يحتوي على أيكة مرخ وشجيرات أخرى تتضاد بغرابة مع السهل الكئيب ذي الحشائش الجافة.

كان العمود الحدودي التالي مدهشاً أكثر من الذي سبقه، كان عبارة عن حجر رملي كبير مستدير، أشبه ما يكون بالقنبلة، وبجواره قطعة صغيرة من المادة نفسها، لا بد أن تكون هذه قد تم جلبها من موقع ترسب قريب للحجر الرملي، والذي تبرز بعض أجزاء منه من حين لآخر فوق المنطقة التي في معظمها من تركيب بركاني. كان هذا أيضاً موقع لقاء ثلاثي حيث تتصل قبيلة الجعادرة -ربما كانوا أيضاً بني مروان- مع بني حداد على الجانب اليمني لمواجهة بني حمد. يقف عمود خرشة الحوسية[1] (رقم ٢١٥) فوق سهل لطيف ذي شجيرات ويحمل جزء كبير منه محصولاً جيداً للذرة (الدخن الكبير) وينتمي إلى قرية الخوجرة (بني حُمّد) التي تقع على مسافة إلى البعيد ناحية الشمال.

واصلنا سيرنا فوق السهل نبحث عن العمود الحدودي التالي، وتوقفنا مؤقتاً عند عدد تسعة حجارة مبعثرة يصعب وصفها ولقد انتابني الخجل، حينما تردد مرشدي للتعرف عليها هدفاً لبحثنا، ولذلك تحركوا يبحثون عن مرشح آخر لهذا الشرف، بينما جلست أستغرب إلى متى ستستمر هذه اللعبة. كأن الأمر كمن يبحث عن المسامير في حقل تبن، تمكنوا من العثور على الهدف على بعد (٣٠٠)

(١) خرشة الحوسية: كتبها ونطقها فيلبي كالتالي (حرشة الحوسية) والاسم الصحيح هو ما دوناه. (ابن جريس).

ياردة على جانب الطريق الرئيسي الذي يقود من حرض عبر صامطة إلى (أبو عريش وصبيا) كان بلا شك طريقاً سريعاً من أيام الإدريسي. يطلق على العمود الحدودي هذا الاسم نفسه الذي أطلق على العمود السابق، وهو خرشة الحوسية (رقم ٢١٤) وكان يتألف من مجموعة حجارة مبعثرة فوق كتلة حشائش نبت من بينها نبات الطرفاء. لابد وأن تكون الأمطار قد هطلت هنا وذلك لأن حشيشة الثمام انتجت أفرعاً خضراء جديدة بينما تناثرت أعواد من الصبار الصحراوي والتي تبدو وكأنها ميتة أكثر منها حية.

وصلنا الآن إلى نهاية أرض بني حُمّد وجلسنا بصبر ننتظر قدوم ممثلي قبيلة التنابكة الذين تأخروا حتى الآن. بدأت عاصفة رملية متوسطة تهب تدفعها الرياح الجنوبية الغربية لترفع من حماسنا، غير أننا لم ننتظر طويلاً، إلاَّ أن الشخص الذي وصل أولاً لم يكن شيخ القبيلة. كان زائرنا هو الشريف محمد بن حمد الخلاص رئيس أشراف وعلان، وهي قرية في أعلى تعشر تقارن من حيث الحجم والأهمية مع صامطة. كان مظهره رائعاً في ملابس عظيمة ورحب بنا إلى أرضه بكل سخاء. لم يعد هؤلاء البقايا من النبلاء القدماء يستمتعون بالثراء والمكانة التي كانت لديهم في الماضي، وأصبحوا في معظم الأحوال فقراء سادة ومزارعين يلتصقون بشراسة فوق أرضهم غير المضيافة. كانت أخلاقهم غاية في الحسن ونبل تربيتهم يشع مع كل حركة.

كانت البلاد أمامنا كثيفة الأشجار بصورة أفضل مما قد رأينا منذ أن غادرنا الساحل، وقد مهدت لنا التربة الطينية قيادة سهلة للشاحنة بتتابع من فرجات بين مجموعات من أشجار الطلح (معظمها سمر) وقطف وبشام متناثر (بلسم) والذي يستخلص منه صمغ ذو رائحة حلوة معروف لدينا باسم بلسم مكة أو بلسم جليد.

لا يزال البشام واسع الانتشار في مكة وغيرها من مدن الحجاز كبخور ولبان يمضغ. وصلنا بعد خمس عشرة دقيقة من هذا التقدم الممتع، إلى منطقة صخرية مكسرة بالعديد من المجاري الصغيرة، ولما صعب على الشاحنة مواصلة السير، قررنا أن نعسكر في هذا الموقع لقضاء الليلة ونعيد ترتيب أسلوب مواصلاتنا. ستعود الشاحنة إلى جازان وستقابلنا مرة أخرى عند نهاية فحص الحدود الذي سيتم بكامله سيراً على الأقدام.

وصل إلى المعسكر قبل غروب الشمس شيخ قبيلة التنابكة واسمه حسن الفقيه، وقد وجهه صوت شاحنتنا من قرية المجروب في منطقة تعشر العليا خلف سلسلة سلال المنخفضة. كان رجلاً نحيلاً، متنسك المظهر، ثري اللبس ويبدو أنه يعرف الكثير عن البلاد أكثر من أي شخص آخر قابلناه من قبل. تمكنت عن طريقه من تخفيض نسبة تضارب أسماء المعالم الرئيسة للمنظر الطبيعي الريفي. والتي كنت أسجلها بصبر على مسؤولية مختلف المخبرين الذين ربما كانوا سعداء أن يقولوا لي مع السلامة بنفس الدرجة التي كنت أرغب أن أراهم يغادروننا. خذلني الشريف العظيم بذهابه لينام في منزله بعد تناول وجبة العشاء، غير أنه عاد في الصباح قبل الساعة الثامنة. واكتفيت ببعض الملاحظات الساخرة حول الكرم العربي. ظل حسن معنا، على أي حال، وقد استمتعت بحديثه وبرفقته.

يخدم هذا القسم من سهل تهامة، مثله مثل بقية بلاد عسير بالأسواق الأسبوعية في مواقع مختلفة وفي أيام مختلفة. تتمتع الخوبة[1]، وهي مركز إداري

(١) لمزيد من الإيضاح عن منطقة الخوبة، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص١٧٨ – ١٧٩ . (ابن جريس).

للمنطقة، والتي كنت قد زرتها في وقت لاحق، بالفخر بموقعها وبسوق الخميس. تأتي في المقام الثاني حرض، في اليمن، بسوق الثلاثاء، بينما يكون سوق الأربعاء وسوق السبت بالتوالي في كل من الجما[١] تقع خلف تل خطوة على الجانب اليمني، وحيران، أيضاً في اليمن، ويكون سوق الأحد في المرتفعات الوسطى لوادي خُلَب أسفل الخوية وهو يكمل الحلقة التي تمد السكان في هذه الأرض بسوق في كل يوم من أيام الأسبوع. أمكننا رؤية وعلان على مسافة ثلاثة أميال ناحية الشمال، غير أننا لم نر مجروب بينما كانت هنالك قرى أخرى داخل مجال الرؤيا هي مكمبال (أو أمكمبال) وسكانها خليط مع بني مروان، وخلفة[٢] -قرية صغيرة مخلوطة- ومصفق وهي قرية صغيرة سكانها متنوعون على الجانب القريب من المجنة.

كانت دنيا الطيور مثيرة للاهتمام في هذه البلاد الكثيرة الغابات، مقابل كآبة السهل الصحراوي. كانت طيور الشادي الأورفيي متوافرة إلى جانب صنفين من الصرد والجشنة والقنابر النورفوكية. رأيت الزقزاق الاجتماعي أثناء النهار حول مجرى حوسية. كما كان طائر العجلة الحزين أو (أبو معول) أكثر الطيور المقيمة في هذه المنطقة، كما استمعت لصوت طائر الوقواق التهامي إلاَّ أنني لم أره إلى جانب طائر آخر كان نداؤه «كو - كو- كو» وربما كان صائد ذباب الجنة. برزت عقرب من الصباح تحت فراشي ولم يمض وقت طويل إلاَّ ونسمع ونرى أسراباً ضخمة من طيور القطاة تهبط عند البرك في وادي أبو صول أمامنا. طار أمامنا سرب من واحد وعشرين من طيور اللقلق برشاقة ونحن نقترب من هذا المجرى،

(١) الجما: تنطق أيضاً (أمجما)، وكلاهما صحيح. (ابن جريس).

(٢) خلفه: تسمى أيضاً (أمخلفه) أو (خلفة وعلان). (ابن جريس).

واختفت إلى البعيد. كانت المسايل الصغيرة التي عسكرنا بجوارها مغذيات لأول جدول من بين ثلاثة جداول لصرف أبو صول، والتي تتحد فيما بعد لتكوِّن وادي الملح[١] وهو رافد لوادي تعشر. يرتفع أبو صول نفسه إلى ارتفاع مرتفعات الخطوة، وهو معلم تَلِّي لمجموعة حرض. كانت هنالك العديد من البرك المائية في بطنه الصخري المغطى بالرمل إلى أعلى وإلى أسفل منطقة عبورنا، ويعد هذا الموقع مكان شرب مستديم ويطلق عليه اسم الملح. توجد مجموعة أخرى من البرك على مسافة (٢٠٠) ياردة إلى أسفل تسمى مسبح الكلبة بينما يقع على مساحة نصف ميل مع اتجاه أسفل الوادي المشرب الرئيس ويسمى محفور.

تقف مجموعة صغيرة من الحجارة على جانب الفرع الثاني من أبو صول، تدل على العلامة الحدودية التي تسمى أبو صول (رقم ٢١٣). هذا المجرى أقل وضوحاً من الأول، وما هو إلاَّ انطواء في الأرض الصخرية التي يكسوها غطاء نباتي غني بينه نبات الرنفة أصفر الأزهار والطلح العادية والقطف وأشجار العلب. توجد بالقرب من هذا المجرى عشش قليلة مبنية من الأعواد لرعاة من قبيلة قيس تحت ظلال أشجار ضبر كثيرة. بدت هذه البلاد الصخرية المتدحرجة المكونه من البازلت والجرانيت والكوارتز وكأنها نهر جليدي يصب منحدراً من الأودية المختلفة الساقطة من التلال. يجري وادي حرض -كما قيل لي- كنهر منساب يختفي ليظهر فوق السهل، غير أنه لا توجد مياه جارية في الحوسية ولا في أبو صول. كانت هنالك علامات لزراعة سابقة في المنطقة الأخيرة (أبو صول) تعزى إلى

(١) وادي الملح: يلتقي شمال الخوجرة مع وادي تعشر. أما وادي أملح فيصب في وادي الخمس، ووادي أملحي يصب في وادي الدحن، ومن الدحن إلى وادي خلب. (ابن جريس).

مزارعين من قبيلة قيس، وهي -بدون شك- ليست حديثة. يتبع شريط الحدود المجرى الأعلى لأبا صول الثاني إلى كومة دقيقة من حجارة صغيرة على الجانب الأيمن في وسط حقول ذات متاريس ويسمى أبو مشنى[١] (رقم ٢١٢). تنتمي هذه أيضاً إلى مزارعي قبيلة قيس وقد رأينا بعضا منهم في المنطقة المجاورة لنا، يرتدون خرقة قماش حول خصورهم وقبعة عريضة من القش تحميهم من الشمس. وصل رجل على ظهر حمار أثناء وجودنا في هذا المكان ومعه جرة ماء ضخمة، واجتمع رفاقي، ما عدا الشريف الذي لم يكن ظمئاً، حول الجرة يشربون دون أن يدعونني لأشاركهم وحينما علقت على هذا التصرف مع الشريف، أجابني بلهجة مرحة: «نحن بدو كما تعلم». أرسلوا على أي حال أحد الرجال على الفور ليحضر لي بعض الماء، وكافأته على ذلك بريال، على الرغم من أنني لم أكن أرغب في الشرب أصلاً.

وصلنا إلى موقع يرتفع فيه الطريق في حدة إلى أرض منخفضة عارية، ونحن لا نزال فوق المجرى الكثيف الأشجار، وقد تجرحت بجداول ضحلة صرفية تتلاقى في أبي صول. تسمى هذه الأرض السفلى الدنديفه[٢] وتحمل ما لا يقل عن أربعة أعمدة حدودية على الشريط الذي يتجه شرقاً إلى سفح التلال الحقيقية، التي تنحدر فجأة إلى العمود الرابع في طبقة بارزة تميل من جهة الشرق إلى الغرب على زاوية (٤٥) درجة.

---

(١) العمود الحدودي أبو مشني يطلق عليه أيضاً اسم (معمال أبو مشني)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٩ . (ابن جريس).

(٢) الدنديفه: أوردها فيلبي (دنادف) والاسم الصحيح هو (الدنديفة). (ابن جريس)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٩ . (ابن جريس).

كان ارتفاعنا عند العمود الحدودي الأول (رقم ٢١١) حوالي (٣٥٠) قدماً وتمكنا من رؤية قرية حسم اليمنية إلى الجنوب والتي يتكون سكانها من جزأين أحدهما من حرض والآخر من قيس من الجانب السعودي. كان العمود الحدودي الثاني (رقم ٢١٠) على ارتفاع (٥٠) قدماً، في خلفية أشجار الضبر يتخللها شجر السلم والسمر على مسافة (١٠٠) ياردة إلى الشرق من الممر الذي يقبل من ناحية حرض عبر حسم ويمر بطريق المجروب إلى الخوبة. كانت أشجار البشام في وفرة وتمد السكان المحليين بالمسواك. بدا لي الناس هنا وهم بائسون العديد منهم يكاد يكون أعمى بأمراض عيون مختلفة، وكلهم مريض، وكلهم آسف، ولهم اعتراض متأصل لأي ضرب من الإجهاد الجسدي أو الإرهاق. كانت دهشتهم مسلية حينما أخرجت الترمس وقدمت لهم أكواباً من الشاي الساخن. كانت العلامة الحدودية الثالثة (رقم ٢٠٩) على ارتفاع (١٠٠) قدم أعلى من السابقة، وكانت عبارة عن كومة من حجارة تم جمعها من السهل وبالكاد يمكن التعرف عليها بأنها من صنع الإنسان. أمكننا من هذا الموقع المرتفع نسبياً، أن ننظر إلى الخلف إلى سلسلة عداية الدغاسة المجاورة لمنخفض القوباء غير أن العلامة الرابعة الدندفة (رقم ٢٠٨) كان أعلى أكثر، حوالي (٥٥٠) قدماً فوق سطح البحر. كانت تقريباً عند أسفل التلال، وذات حدود واضحة مع السهل، وتجري بالفعل شمالاً وجنوباً في هذا القطاع لمسافة (٥٠) ميلاً.

كان العمود التالي واسمه الدويحي (رقم ٢٠٧) على الارتفاع نفسه كما كان سابقه إلاَّ أنه يقف على العرن الفعلي لسلسلة بنر التي منها كان هنالك هبوط خفيف إلى العلامة الحدودية التالية واسمها امعاين[١] (رقم ٢٠٦) التي تقف على

(١) أمعاين: هكذا ينطقها السكان المحليون، مع أنها تلفظ أيضاً (المعاين). (ابن جريس).

الشاطئ الأيسر لوادي تعشر على ارتفاع (٤٠٠) قدمٍ فوق سطح البحر. قامت لجنة الحدود بزيارة الموقعين وأقرت موقع العمود، وكان سليمان الحمد، حفيد وزير المالية، أحد أعضائها وقد خدم المملكة العربية السعودية، بينما كان ممثل اليمن يسمى عبدالمطلب. لم يكن الخط المستقيم الموصل بين العمودين هو الحدود، والتي -حسب ما تم الاتفاق على ذلك - تعد ممتدة من الدويحي حتى امتداد سنام سلسلة هجرة النمر[1] وهي الامتداد الشمالي لبنر، ثم إلى أسفل إلى الجانب الأيسر لوادي تعشر في أمعاين. عاد عضوا اللجنة، بعد أن أشرفا على حل هذه المعضلة دون أن يحسا بإرهاق التسلق لارتفاع (٨٠٠) قدم فوق الانحدار الشديد، إلى ضيافة وكرم الشريف في وعلان، وفي الصباح عن طريق المجروب، قاما بزيارة أمعاين. طفنا حول السلسلة بعد رصد موقع المجروب، الذي بدأ ظاهراً للعيان لأول مرة على الجانب الأيمن لتعشر الذي يفصل أرض الأشراف عن أرض التنابكة. يقع على يساره في نفس المنطقة العامة، قرية أبو الضبرة وبها سكان قليلون من قبيلة قيس، والتي كانت تخضع لليمن قبل تثبيت الحدود، غير أنها الآن حولت ولاءها.

أشرت إلى الشريف، قبل مغادرتنا الدويحي بأن الوقت قد دخل لصلاة الظهر، وأفادني أنه ليس من الشرع أن يؤدي المرء الصلاة دون وضوء إذا كان الماء متوافراً. كنت أعتقد أن رغبته الحقيقية هي الوصول إلى حماية وكرم قرية أمعاين بأسرع فرصة، وذلك لأن أقرب موقع للماء (وهو وادي تعشر) يقع على بعد ساعة ونصف الساعة إلى الأمام من موقعنا. استغربت أن أجد إجابته غير مستساغة لدى

(١) هجرة النمر: يطلق عليها اليوم اسم (جبال النار). (ابن جريس).

بقية المجموعة، بما في ذلك حسن الفقيه، وذلك لأنهم اصطفوا جميعاً للتيمم بالرمل وأداء الصلاة قبل مغادرة الموقع. لم يشترك معنا الشريف في هذا.

تنشق سلسلة هجرة النمر إلى نصف طولها بممر جميل يسمى الغاوية والذي يدخله رافد مسيل لتعشر. كانت الزاوية المحصورة بينهما أرضاً زراعية كثيفة من أسفل السلسلة إلى أعلى السلسلتين الخارجتين وهما منود وصلال واللتان تبدوان على بعد وكأنهما من حجر رملي. تحمل معظم الحقول ذات المتاريس بقايا حصاد المحصول السابق، إلاَّ أنه توجد مساحات للدخن الأخضر حول قرية الغاوية الصغيرة. هبت رياح جنوبية متوسطة القوة عند الظهيرة وقد حجب الضباب العلامات الأرضية البعيدة أثناء ما كنا نقترب من معسكرنا في أمعاين. كانت هذه القرية على الجانب الأيمن للوادي بالقرب من قرية أصغر تحمل الاسم نفسه والتي تقع على الجانب السعودي قريباً من خط الحدود الذي يخترق المعسكر.

أمضيت ساعة جميلة بجوار عمود أمعاين الحدودي وذلك قبل أن نعبر الوادي، وقبل الغروب كنت خلالها أقوم بتسجيل ملاحظاتي حول المحيط المجاور. كانت العلامة الحدودية مخيبة للآمال، كالعادة، إلاَّ أنها وقفت بجوار عينة ممتازة لشجرة العدن وردية الأزهار، التي يضيق ساقها عند قاعدته الدرنية إلى رأس رفيع يرتفع إلى (١٠) أو (١٢) قدماً، يتم نقش الساق لاستخراج صمغها العطري. تنحدر صخرة شبه شستية رهيبة عارية إلى أسفل وبلا مقدمات من نهاية هجرة النمر إلى موقع يدخل فيه الوادي إلى سهل تهامة.

يأتي هذا الوادي في اتساع من ناحية الشمال الشرقي وفي هذا الاتجاه يكون المجرى مرئياً مسافة ميل واحد.

كان الوادي محاطاً من الجانبين بصخور عالية وتكوِّن تلك التي تقع على الجانب الأيمن جزءاً من التل الشديد الانحدار الذي يسمى مربح أمعاين، والتي إلى جانب ربوة مماثلة تسمى مربح الشام (إلى الشمال) وعلى بعد (٥٠٠) ياردة إلى الشمال منها، وهو موقع معترف به كمكان تعسكر فيه القرود. لقد رأيناها هذا اليوم، في أعداد لا بأس بها، وذلك لأول مرة منذ أن غادرنا الساحل، إنها تقضي الليالي في هذه التلال في تجمعات كبيرة، وتقضي النهار ترعى أوراق الغابات في المواقع الخلفية المنعزلة إلى ما وراء الطرف الخارجي للسفوح الجبلية، أو أحياناً، بين محاصيل القرية.

ينحدر الوادي، خارج مجال رؤيتنا المحدودة إلى أعلى، بين تلي جحير (الجانب الأيمن) ومبعوثة. يوجد جدول جارٍ أو غيل فوق ذلك الموقع، -كما جاء في الروايات المحلية- وعلى امتداد المجرى الذي نراه على جانب الحدود، وهو ينساب بين جانبين تكسوهما الشجيرات ويقال إن انسياب الماء مستديم، على أي حال، حتى وعلان على جانبه الأيسر وقليلاً بعد ذلك إلى ما يليها. قدرت عرض هذا الجدول من موقعي على الحدود، ويجري الجدول الآن أسفل الجانب الأيمن فوق مجرى حصوي. مسافة (١٠٠) ياردة وعمق ستة أقدام في بطن الوادي الرئيس. وتوجد أعلى هذا الموقع في انبعاج كبير للجانب الأيسر حيث يدور المجرى في المنحنى، بركتان بارزتان يطلق عليهما اسم (حجلة أمعاين) ومنهما اشتق اسم العمود الحدودي واسم القرية الصغيرة. لقد أضافتا جاذبية للمنظر كما يرى من هذا الموقع بحلقات مياههما العميقة ذات اللون الأزرق التي يبلغ عمقها (٢٠) قدماً. استمتعت عند الغروب بحمام ممتع في إحدى البركتين وقد وجدت الماء دافئاً بسبب أشعة شمس النهار.

تنحدر الصخور هنا على زاوية (٤٥) درجة فوق طبقات محطمة وملتوية، بينما تكسر جزء كبير من الصخور التي تربط بين جبلي القرود وجرفت السيول جزءاً منهما. كانت تنتشر كِسَرٌ من الصخور في المجرى، بينما توجد على جانبيه، وفوق المنحنى، أكوام كبيرة من صخور وحصى ربما كانت بقايا سد قديم في الأيام السعيدة الخوالي حينما كان عرب هذه المناطق الجبلية مهندسي مياه عظام، وقد وظفوا مهارتهم لري مساحات واسعة من الأرض التي هي الآن مهجورة وقد غطتها الرمال. لقد ذكرت سابقاً أن وادي حرض مجرى جارٍ داخل حواجزه الجبلية، غير أنه جاف جداً، عدا أيام السيول، على امتداد مجراه عبر السهل. ينطبق الأمر نفسه على تعشر، وهو أقصى الأودية السعودية ناحية الجنوب. تصل مياهه إلى البحر فقط في أزمان يكون فيها السيل عظيماً، ويفيض في مثل هذه الحالة الوادي فوق مساحات معتبرة من السهل ويخصبها كلها، والتي يزرع القرويون عليها الدخن ومساحات من القطن. تنتج الأجزاء العليا والوسطى محاصيل جيدة حتى في السنوات ذات السيل العادي، علماً بأن كل الماء يتم استغلاله في قضاء حوائجهم وبالتعامل غير الماهر أيضاً، وذلك قبل أن تصل إلى القطاع الساحلي الذي تبرز مياهه تحت السطحية في مواجهة البحر لتكون المسطحات الملحية التي ورد ذكرها. لن يكون الأمر صعباً بالتأكيد عدا تمويله، لإعادة تشغيل السدود القديمة التي حافظت ووزعت الماء على أسس علمية للصالح العام الذي يعود على البلاد التي تقع إلى أسفل.

ينطبق هذا على العديد من الأودية التي سنزورها في وقت لاحق، وكذلك ينطبق الأمر على مجارٍ مثل وادي جازان، ووادي ضمد، ووادي بيش[1] وربما

(١) وادي جازان، وضمد، وبيش تعد من أهم الأودية في منطقة جازان، ومنابعها تأتي من منحدرات جبال السروات الغربية وتتجه غرباً حتى تصب في البحر الأحمر. (ابن جريس).

أودية أخرى، أعتقد أن مساحة قابلة للزراعة وبها خصوبة كامنة، وفي حجم الدلتا المصرية تنتظر رؤوس الأموال العربية ومهندسي الري في المستقبل. ربما تكون ثروة النفط في شرق الجزيرة العربية هي الوسيلة لإمداد الساحل الغربي بالمياه التي تذهب هباءً بسبب عدم الاستفادة منها حينما تأتي بها السيول. لقد أزعجتني، -بصفة عامة-، حالة الفقر التي يعاني منها الناس في هذه الأجزاء، ويحدوني الأمل بالإمكانيات العظيمة التي ستضع حداً لذلك.

رأيت زوجاً من طيور (أبو مطرقة) أثناء تجوالي في المجرى، وكانت تعشعش هناك، حيث كان أحد الزوجين جالساً فوق العشة الضخمة، وهي مبنية في مكان بارز على الشجرة. كما كانت تحلق طيور سنبيرد وادي النيل في أزياء زفاف رائعة بينما هبط سرب من حمام الصخور إلى الماء قبل حلول الظلام. رأيت وسمعت طائر العجلة، غير أن هذا أصبح الآن شائعاً، ولم ينقص إعجابي به منقاره الكبير المقوّس الذي يقف عند نهاية جسم دقيق نسبياً، ولم ينقص إعجابي بطيرانه الصامت وتشكيه المتوجع. كانت البلابل وطيور البلاكستارت متوافرة أيضاً في الوادي الكثيف الأشجار بجوار الأثل والأراك والسمر ذات الأزهار البيضاء. كما رأيت زوجاً من البط فوق الماء واستمعت إلى أصوات العديد من الدجاج الحبشي في السفوح الجبلية. كنت استحم في الصباح الباكر في واحدة من البرك حينما فوجئت بصوت كأنه أمطار غزيرة. نظرت إلى أعلى لأكتشف أنه كان يصدر من وقع أقدام مئات الماعز وهي تمشي فوق الحصى لتصل إلى موقع الشرب.

كانت درجة الحرارة في الليل كما في الليلة السابقة (أدناها كان ٦٤ درجة)، وكان الجو صافياً في الصباح مما سمح بإلقاء نظرة على الجبال العالية. وأيضاً مما

يدهش له، رؤية براكين قمتين بالقرب من (أبو عريش) حوالي (٢٠) ميلاً من هنا. وقف بناء حسن الفقيه بارزاً بين منازل المجروب[١] على بعد يقل قليلاً عن الميل الواحد. ويعتقد أن بني زين وبني عواجي التابعين لقريتنا، والسرداح الرباح، التي تقع أمامنا وقرى أخرى صغيرة بجوار الحدود، ما هي إلاَّ أقسام لقبيلة التنابكة. تمتد الحدود أمامنا ناحية الشمال وتطوف بالسفوح الجبلية، إلاَّ أننا نستطيع رؤية قمم كل من النقارة[٢] وجحفان (داخل الأرض سعودية) وبينهما تجري الحدود ناحية الشرق فوق مجرى المغيالة[٣]. كان كل ما أمكننا رؤيته من الجانب الأيسر لوادي تعشر، بما في ذلك الغاوية ووعلان تنتمي إلى الأشراف. بدأنا السير على الأقدام فوق مساحة صغيرة من الجذامة تنتمي إلى قريتنا، وسرعان ما وصلنا إلى العلامة الحدودية على الطرف الغربي لتل القرود الشمالي واسمه مرباح الشام (رقم ٢٠٥). كان عبارة عن كومة كبيرة وكسارة لصخور ملقاة بإهمال وبالكاد يمكن تميزها بأنها من عمل الإنسان.

أخذ الزمام على الجانب اليمني قبيلة بني السيل من قبيلة بني حدَّاد، بينما ظل التنابكة في موقعهم غرب الشريط، والذي فوقه وبعد مسيرة (٢٠) دقيقة أو أقل وصلنا إلى بلكات كبيرة من الصخر موضوعة حول تجويف داخلي عند طرف ممر ضيق حجري بين السفوح الصخرية المنخفضة. أخذ هذا الممر اسمه من السلسلة - ضلع المرباح أو باختصار ضلع (رقم ٢٠٤). قُدِّم إليَّ حمار قزم في

(١) المجروب: ينطق عند السكان المحليين (أمجروب). (ابن جريس).

(٢) النقارة: يطلق عليها اليوم اسم (جبل النقارة). (ابن جريس).

(٣) المغيالة: ينطقها السكان المحليون باسم (أمغيالة) واللفظ صحيح للاسمين، وسوف نستخدم كلمة (المغيالة) في الصفحات التالية. (ابن جريس).

هذا الموقع ليأخذني فوق طريق على أرض ميتة، منخفضة، صخرية ينمو فوقها نبات خفيف شحيح وشجيرات القطن عديمة الورق. امتدت حقول الجذامة التابعة لمجروب إلى حافة الصخور ولا يبدو عليها أنها مزدهرة. وصلنا على فترات قصيرة إلى علامتين حدوديتين باسم ضلع (رقم ٢٠٣ ورقم ٢٠٢) وتوقفنا قليلاً عند كل منهما نستمتع بالمنظر. رأيت حسناً وهو يتقدم في تلصص ليضيف حجارة قليلة من القفار المجاور ليجعل الحجارة الثلاثة لعموده الحدودي تبدو بشكل أفضل، أما غير ذلك، فإن النقطة المهمة هنا هي قرية حجاج الصغيرة على بعد ميلين وهي ذات بناء جميل يسود على عشش الوتل وعشش الأعواد.

واصلنا سيرنا فوق البلاد الكئيبة على امتداد قاعدة موجة الصخر الغاطسة ووصلنا إلى عمود ضلع رابع (رقم ٢٠١) ووصلنا فيما يليه إلى عمود حدودي له خلفيات تاريخية. كان اسمه مقتلة ناصر (رقم ٢٠٠) وواضح أنه كومة حجارة قبلية قديمة تم تضمينه داخل الحدود الرسمية ويقف تذكاراً للأيام الخالية لمقتل رجل يسمى ناصر من قبيلة بني حُمّد، وقد قتله رجال قبيلة بني مروان. يسمى هذا العمود وكذلك العمود التالي بالاسم نفسه (رقم ١٩٩) ويقفان فوق أرض مناسبة، كان أولهما في وسطها، وكان الثاني عند الطرف الشمالي لسهل كثير الشجر، خاصة أشجارالسمر ذات الأزهار البيضاء، إلى جانب عدد كبير من أشجار العدن. كانت هنالك بعض حقول دخن على الأطراف الغربية لهذا السهل تتبع لأهل المجروب وسرداح الرباح، بينما بدت بالكاد وعلى بعد ملامح قرية القفل الكبيرة على الشاطئ الأيسر لوادي لية[1] وهو رافد مهم لوادي خلب.

(١) وادي لية في منطقة جازان يختلف عن وادي لية القريب من مدينة الطائف ناحية الجنوب. ووادي لية جازان يطلق عليه أحياناً وادي سامطة. (ابن جريس).

عبرنا بعد قليل فيما يلي هذا السهل مجرى وادي المنجارة الصعب الضيق، الذي يهبط من سفوح جحير ويتصل في نهاية الأمر مع وادي تعشر أعلى صامطة. وصلنا فيما يلي جانبه الأيمن إلى عمود المنجارة الحدودي (رقم ١٩٨) وهو كومة من حجارة كبيرة. كنا نصعد تدريجياً دون أن نحس بذلك، ونحن الآن على ارتفاع (٦٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان الوقت ظهراً وحاراً تحت الشمس وقد أحضروا لنا الماء من قرية عواجي التابعة لسرداح الرباح، وقد سرني أن أجدهم هذه المرة يقدمون لي أول كوب منها. يتصل مسيل من سفوح شقدام مع المنجارة على مسافة نصف ميل تجاه أعلى الوادي في أرض اليمن تحت سلسلة عشة سعيد التي تمتد عبر الحدود، التي تجري إلى مضيق منخفض في وسطها وبه علامة حدود توضيحية (رقم ١٩٧).

لم يكن حسن الفقيه -الذي كان نشطاً في حرب عام ١٩٣٤م يحارب مع قوات الإمام في السفوح الجبلية حول عنم، على مسافة عشرة أميال شرق موقعنا الحالي عند المضيق- سعيداً فيما يخص خط الحدود في هذا القطاع من بنر شمالاً. كان رأيه أن يعد الخط من أبي صول إلى الطرف الجنوبي لسلسلة بنر ومن هناك على امتداد سنام سلسلة السفوح الجبلية الخارجية حتى هذا المضيق، وألمح إلى أن اللجنة الحدودية بشقيها قد تناولت الرشاوي من القبائل اليمنية لتضع الحدود قليلاً ناحية الغرب. لم يكن الأمر يهم كثيراً إلاَّ أن لحسن أحزانه الشخصية. كان يمتلك عقاراً في وادي تعشر تجاه أعلى الوادي بالنسبة للحدود، ولكي ينهي علاقته في اليمن فقد باع هذه الأرض. تقع قرية المنجارة الصغيرة التي يمتلكها بني الجراح التابعون للمروانيين، أسفل من موقعنا في الوادي على بعد (٥٠٠) ياردة وتبدو أنها في الجانب اليمني، بينما تقع قرية حداد السعودية (أو رزم السودة) التي

يسكنها بني حدّاد وتحتوي على بناء واحد بين عشش الوتل، قليلاً على يسارنا على الرافد الصغير الأول والذي يسمى وادي المغيالة.

نقلتنا الحمير الآن إلى السفح العكسي لعشة سعيد إلى حيث العمود الحدودي عطيانة (رقم ١٩٦) وهو كومة صغيرة من حجارة على قاعدة مربعة من صخر طبيعي فوق مساحة من أرض صخرية تزينها العديد من أشجار العدن التي يبدو أنها تعيش على أدنى درجات من التربة. قوبلنا بعد خمس دقائق أخرى، عند نهاية حقول زراعتهم بوفد من قبيلة الحكامية يرأسه شيخهم محمد حسن ضكام. أخذنا طريقنا بتوجيه منهم عبر المتاريس والحفر داخل حقولهم التي يسمونها عطيانة على الرغم من أنها تنتمي إلى قرية (أبو الرديف) التابعة للحكامية على مسافة (٥٠٠) ياردة إلى أسفل المنخفض الضحل الذي يضم كل القرية. يخترق خط الحدود، كما قد رأينا حينما وصلنا إلى عمود التذكار غير الطبيعي الحدودي الذي يسمى فشالية (رقم ١٩٥) الذي يطل على القرية، المزارع دون كياسة ويترك ثلثها داخل الجانب اليمني، وهو امتداد طولي بحوالي (٥٠٠) ياردة إلى قدم تل المحمر الذي ينتج عنه المنخفض. على الرغم من هذا الوضع الغريب لشريط الحدود، والذي كان يمكن رسمه ليتضمن كل مساحة القرية في مملكة واحدة، فإن الحصافة الدولية قد تدخلت لتصدر حكمها بأن الحقول التي على الجانب اليمني ستعامل بكل الطرق خاصة فيما يختص بالضرائب كأنما هي واقعة داخل أراض سعودية مثلها مثل غيرها. ويمر مسيل (أبو جريدة) الذي ينحدر من سفوح المحمر، إلى أسفل مباشرة فيما يلي العمود الحدودي إلى ري الحقول الأبعد إلى أسفل.

تقع القرية الصغيرة ذات البناءين، أحدهما مربع والآخر مستدير، وعششها المنتشرة على جانبه الأيمن، إلى مسافة فوق موقع التقائه مع وادي المغيالة. كانت

قرية تبدو مزدهرة مقارنة بمعظم القرى التي كنا قد رأيناها وترتفع إلى (٨٠٠) قدم فوق سطح البحر.

يقف العمود الحدودي التالي واسمه عشة زبادي (رقم ١٩٤) على السلسلة البعيدة للمنخفض وتطل على بعض الحقول الخارجية التابعة لأبي الرديف. أمكننا رؤية الموقع الذي يخرج منه وادي المغيالة، أمامنا، من السفوح الجبلية ليبدأ جريه عبر السهل، والذي يتصل فيه مع وادي تعشر عند قرية مجر أسفل صامطة. أفصح حسن الذي سئم من المسيرة وتكاسل عن غروره ليخبرني أن مجر على بعد مسافة ميل واحد، علماً بأن موقع لقاء المغيالة وتعشر يجب أن يكون أبعد من ذلك. نستطيع -حقيقة- رؤية قرية أم السلام[١]، على بعد تلك المسافة وأم أمعود في منتصف الطريق إليها، وهما على مجرى أبو النورة[٢]، الذي يتصل مع أبي جريدة في طريقه إلى المغيالة. يبدو أن الحكامية[٣] من أصل بني مروان وقد لاحظت أنهم وآل مخلوطة في هذه الأنحاء يشبهون البدو في حضرموت باستبدال الكلام بالإشارة. لم أستطع التعود على هذه العادة، برغم أنه ليست هنالك وقاحة متضمنة. لقد وجدتها على أي حال، مزعجة جداً في حالة محمد، شيخ الحكامية، الذي كان شاباً غير جذاب يتعب قبل أوانه. ساورني الإحساس أنه لربما أضاف العجرفة لمآخذه الأخرى إذا تجرأ، وقد أمتعني بصفة خاصة أن أحفظه إلى جانبي كل الوقت خلال تلك المسيرة الكئيبة.

---

(١) أم السلام: تنطق أيضاً عند السكان المحليين باسم (أم أمسلام). (ابن جريس).

(٢) أبو النورة: ذكر فيلبي هذا المصطلح باسم (أبامنورة) وهذا لفظ يستخدمه السكان المحليون، والأفضل استخدام كلمة (أبو النورة). (ابن جريس).

(٣) الحكامية: قبيلة معروفة سكنت أرض المخلاف منذ عهود قديمة، وظهر منهم رجال مشاهير في السياسة والعلم والفكر والأدب. (ابن جريس).

بدأ حسن يضعف تحت الضغط، وقد اعترف لي خلال الظهيرة بأنه لم يحس بمثل هذا الإرهاق طيلة حياته كما حدث خلال اليومين الآخرين. كانت معلوماته الجغرافية -على أي حال- مفيدة لي، وقد تجاهلت استعراضه للكسل ومحاولاته الأخرى ليكون فظاً وقد تضخمت هذه بهيئة فمه المزموم الذي يوحي بالميل للبصاق. أعطيته عشرة ريالات هدية حينما افترقنا في المغيالة صباح اليوم التالي. وقد قبلها مني -لدهشتي- علماً بأنه قد رفض بحزم أن أقوم بدفع ثمن الشاة التي أحضرها لنا لوجبة العشاء تلك الليلة. أبرز هذا الغريزة الحقيقة للكرم، شريطة ألاَّ تتعدى حدودها، وقد أعطيت ثمن الشاة على أنه هدية للخادم الذي أحضرها لنا. كان سعرها ريالين أو ثلاثة بعملتنا!.

كانت الساعة الثالثة مساءً حينما غادرنا عشة زبادي، وقد هب علينا نسيم منعش لطيف ونحن نعبر مجرى (أبو النورة) لنصل إلى العمود الحدودي أمطعس (رقم ١٩٣)، وقد اكتسب اسمه من قرية صغيرة بهذا الاسم على مسافة (٥٠٠) ياردة، تتبع قسم بني علي التابع للحكامية. كان العمود صغيراً غير أنه جيد البناء، على الرغم من أنه محاط بتلال منخفضة حجبت منظر المحيط المجاور عنا ما عدا عدداً قليلاً من حقول القرية، لم تكن قد زرعت حديثاً. سرنا من هذا الموقع إلى قرية محجن في انطباق للتلال مع حقول مستوطنتها الصغيرة التي تسمى بني جراح (مروان). يقف بجواره عمود آخر صغير، من مخلفات حدود قبلية قديمة، إلاَّ أنه لم يكن ضمن علامات الحدود الرسمية.

حاول العديد من رفاقي، عند هذا الموقع التهرب، مفضلين الراحة في القرية على السير الصعب للوصول إلى عمود محجن الحدودي الرسمي، على مسافة

دون عشر دقائق، غير أنني أصررت على أن يواصل الجميع المسيرة معي. يخترق خط الحدود مرة أخرى منخفضاً تمتد في أعلاه مزارع محجن إلى حوالي (٥٠٠) ياردة داخل اليمن - غير أن هذه المعضلة قد تم التغلب عليها بالاتفاق بمعاملة هذا الجانب في كل الأغراض العملية كأنه جزء من المملكة العربية السعودية. لاحظت أن الحقول التي بدأ بعضها وهو أخضر بمحصول الدخن الجديد، تنتشر فيها الأكوام الحجرية، ليس كمواقع حدودية، بل كفزّاعات لطرد القرود المتلصصة. كان عمود محجن (الرقم ١٩٢) من تسلسل الحدود ويقع تجاه الشرق لعمود القرية. هبطنا من السلسلة المنخفضة فيما يليه، ناحية الشمال، لنعبر وادي القماري، وهو رافد آخر للمغيالة، ينبع في الأراضي العالية حول النقارة، ووصلنا إلى عمود عشة الكيال (رقم ١٩١) على الجانب الأيسر لمجرى آخر هو وادي ضبب، ينبع من المنطقة نفسها. بدت التلال الحدودية التي تنهض في خطوط كفافية دائرية هناك من السلاسل المنخفضة المتموجة على جانب السهل، وكأنها قطيع من الدلافين تغطس في بحر هائج.

استرحنا هنا بعض الوقت لتناول بعض المنعشات، وقدمت بعض الخبز للمجموعة، وذهب بعضهم إلى داخل حقول الذرة وعاد ومعه أكواز للذرة غير مستوية. كانوا يشوون هذه الرؤوس فوق نيران أعواد الدخن القديمة، ثم يضربون الرأس على الصخر لاستخراج الحبوب ويأكلونه نيئاً. تقع قريتا القلقل والمفجر[1] الصغيرتان، ومعهما مساحاتهما المزروعة الصغيرة، على بعد نصف ميل من موقعنا على امتداد ضبب الذي عبرناه الآن لنصعد السلسلة المنخفضة المتعارضة التي تسمى عشة السرير إلى حيث العمود الحدودي (رقم ١٩٠) عند طرفها الجنوبي الغربي.

(١) القلقل والمفجر: يطلق عليهما عند السكان المحليين لفظ (أمقلقل وأمفجر). (ابن جريس).